منهج
الشيخ أبي الحسن علي الحسني الندوي
في الفكر والدعوة

تأليف

بلال عبد الحي الحسني الندوي

تعريب

محمد خالد الباندوي الندوي

الناشر

المجمع الإسلامي العلمي

تيغور مارغ، ندوة العلماء، لكناؤ (الهند)

حقوق الطبع محفوظة

من مطبوعات المجمع الإسلامي العلمي
لكناؤ (الهند) (رقم: ٣٩٨)

الطبعة الأولى
١٤٤٥هـ ٢٠٢٣م

اسم الكتاب	:	منهج الشيخ أبي الحسن علي الحسني الندوي في الفكر والدعوة
مؤلف الكتاب	:	الشيخ بلال عبد الحي الحسني الندوي
تعريب	:	محمد خالد الباندوي الندوي
الصفحات	:	١١٦
النسخ	:	١٠٠٠
ثمن النسخة	:	100/-

الناشر
المجمع الإسلامي العلمي
تيغور مارغ، ندوة العلماء، لكناؤ (الهند)
Ph: +91-522-2741539
Email: info@airp.org.in
Website: http://www.airp.org.in

منهج الشيخ
أبي الحسن علي الحسني الندوي
في الفكر والدعوة

بسم الله الرحمن الرحيم

بسم الله الرحمن الرحيم

بين يدي الكتاب

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على خاتم الأنبياء والمرسلين سيدنا محمد بن عبد الله الأمين، وعلى آله وصحبه أجمعين، ومن تبعهم بإحسان ودعا بدعوتهم إلى يوم الدين، وبعد:

إذا أمعنَّا النظر في التاريخ الإسلامي، وجدناه حافلاً بأمثلة رائعة من الشخصيات البارزة التي تمتاز في العلم والعمل، والدعوة والفكر، والإصلاح والتجديد، وبلاد الهند تمتاز بالشخصيات الروحية والعلمية والإصلاحية والفكرية، أمثال الشيخ معين الدين حسن السجزي، والشيخ نظام الدين أولياء، والإمام أحمد بن عبد الأحد السرهندي، والإمام أحمد بن عرفان الشهيد، وغيرهم.

وبرزت في القرن الأخير شخصية فريدة، طبق صيتها الآفاق، وأخذ بفكرها وعلمها العرب والعجم، وهي شخصية العلامة الإمام أبي الحسن علي الحسني الندوي رحمه الله.

أخذ العلامة الندوي العلم والأدب والروح والفكر، وبرع في هذه المجالات ونبغ، ففاق أقرانه في جمعه بين العقل والقلب، والأدب والدعوة، والفكر والروح باتزان كامل، حتى قال عنه بعد وفاته أحد المفكرين أنه يدخل بالقلب ويسيطر علي العقل، ومبلغ جهده هو نشر

الإسلام والدعوة إلي الدين الخالص، والذي يشغل عقله وقلبه ووقته هو الإسلام، يقول العلامة القرضاوي رحمه الله:

"إن الإسلام لحمته وسداه، ومبتدؤه ومنتهاه، وأدناه وأقصاه، إليه يسعي وعليه يدور، وله يعمل، وبه يعتصم، ومنه يستمد، وعنه يصدر، وفيه يحب ويبغض، ومن أجله يكتب ويصنف، ويدرس ويحاضر، ويسافر ويقيم، ويصل ويقطع، فهو شغله في نهاره، وحلمه في ليله، وزاده في سفره، وأنيسه في إقامته، فهو بالإسلام وللإسلام، ومن الإسلام وإلي الإسلام"[1].

فالمسلمون اليوم بحاجة إلي فكره العميق الواسع المتزن، وقد كتبت هذا المقال الوجيز علي هذا الموضوع في أردو مقتبسًا من كتبه ومقالاته ومحاضراته القيمة التي ألقيت بمناسبات مختلفة في مختلف أنحاء العالم.

وأنا أشكر الأخ الفاضل الأستاذ محمد خالد الباندوي الندوي أنه نقله إلي العربية بإتقان وجدارة، وكذلك أشكر أخي العزيز الأستاذ محمد وثيق الندوي أنه أعده للنشر، واعتني بطبعه، فجزاهما الله خير الجزاء، ونفع الله به المسلمين، والحمد لله أولاً وآخرًا.

وصلى الله تعالى على سيدنا وحبيبنا محمد، وعلى آله وصحبه أجمعين، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

كتبه

بلال عبد الحي الحسني الندوي

الرئيس العام لندوة العلماء بلكناؤ (الهند)

٢٦/ صفر المظفر ١٤٤٥هـ

١٣/ سبتمبر ٢٠٢٣م

---

[1] يحدثونك عن أبي الحسن الندوي: ٨٩.

منهج الشيخ أبي الحسن علي الحسني الندوي في الفكر والدعوة

الشمول والوسطية:

تُعدُّ شخصية العلامة الشيخ أبي الحسن علي الحسني الندوي — رحمه الله تعالى — متنوعة الجوانب، متعددة الجهات، فقد تحدث عن كثير منها المتحدثون، وكتب عن كثير منها الكاتبون، وعلى الرغم من كثرة المقالات والبحوث والكتب المؤلفة حول حياته، بقيت بعض الجهات الهامة غير مجلوة أمام الدارسين، لم تنكشف بعد، ومن هذه الجوانب صفة جمعه في اعتدال، وهي التي أحلته مكانًا ساميًا بين أعلام المفكرين وجهابذة المصلحين.

وقد مرت على وفاته ما يقارب عشرين سنة إلا أن الأمة المسلمة ما نسيت — ولا تسطيع أن تنسى — ما لحقها من الحزن والكمد والخسارة الفادحة بسبب وفاته، والحق أنها اليوم لفي أشد حاجة إلى فكره المتسم بالوسطية ومنهجه المتوازن أكثر من ذي قبل.

ومما يدل على اتزانه الفكري والوسطية الجامعة أنه نهل من جميع مناهل عصره الفكرية والعلمية والدعوية، وورد كل مورد عذب دون التعصب لطبقة دون طبقة، وجماعة دون جماعة، ولم يحرم على نفسه فكرة أو نظرية كشجرة ممنوعة، بل درسها بإتقان، وخبرها في محك النقد

المتزن والتمحيص العادل، وغربلها بغربال الإسلام، وقبل ما طاب منها، وابتعد مما عافها، وحسبها ضارة للأمة المسلمة.

وكان من ميزاته أنه لم يقدم إلى الأمة إلا ما يزيدها جلاء وبصيرة، ويمدها في حياتها وقوتها، وكان دائم العمل على مقتضى المثل السائر: "الحكمة ضالة المؤمن حيث ما وجدها فهو أحق بها".

فقد نشأ العلامة الندوي وترعرع في بيت علم ودين، وكانت أمُّه تضارع الرابعة البصرية في ورعها وعبادتها، وقد شبَّ بين رجال يجمعون بين الأصالة والمعاصرة، فقد كان أخوه الأكبر الذي اعتنى بتربية العلامة الندوي تربية علمية دينية، خير مثال للجمع بين القديم الصالح والجديد النافع، تخرَّج العلامة الندوي في جامعة ندوة العلماء، فسافر إلى مدينة لاهور وديوبند، ونهل من منهل المفسر الشيخ أحمد علي اللاهوري، والشيخ حسين أحمد المدني، ورافق السيد أبا الأعلى المودودي مدة وجيزة، كما استفاد من الداعية الشيخ محمد إلياس الكاندهلوي، والعالم الرباني الشيخ عبد القادر الرايفوري، وأما الأخيران فقد تركا أثرًا واضحًا ملموسًا في حياته، وكان يعجب العلامة الندوي شعرُ الشاعر الإسلامي محمد إقبال وتأثّر به كثيرًا.

فقد أعد للفكر والدعوة باقة أزهارجميلة شذية تختلف ألوانها ورائحتها، ولكنه جمعها فأحسن جمعها، ورتبها فأجاد في ترتيبها، وأعطى كلا منها نصيبها الموفور، وكل ذلك في اعتدال وتوازن، وجامعية وشمول بحيث تنجذب إليها القلوب، وتهواها النفوس، وتلذ السمع والبصر.

وقد مهَّد له أبوه العلامة الشريف عبد الحي الحسني (صاحب نزهة

الخواطر) أرضًا طيبة، وسقت تلك الأرض أمُّه العفيفة الطاهرة بدعائها إلى ربها وتضرُّعها إليه، ثم قامت برعايتها وتربيتها تربية دينية مستقيمة، ثم رسم اعتدال أخيه الأكبر وجمعه للعلوم الدينية والعلوم الحديثة، واطلاعه الواسع على المناهج القديمة والجديدة أثرًا ملموسًا واضحًا في فكره وعقله، ثم ربَّاه أساتذتُه الأجلة وجهابذة العلم والفن في رعايتهم الخاصة، منهم من يعد من مشايخ العصر أمثال المفسر العظيم أحمد علي اللاهوري، والشيخ محمد إلياس أحمد الكاندهلوي، والعالم الرباني الشيخ عبد القادر الرائيفوري، والمحدث الكبير الشيخ محمد زكريا الكاندهلوي، ولمجالسهم العلمية والروحية أثر عظيم في فكره وسلوكه، كما اتصل الشيخ أبو الحسن علي الحسني الندوي بكبار أعلام الفكر الإسلامي على المستوى العالمي، فاتسعت آفاق جديدة وانفتحت له طرق متعددة للفكر والتدبر، ثم بعكوفه على مطالعة الكتب والتدبر فيها شقّ لنفسه وللأمة الإسلامية طريقا وسطا مشرقا، يستضيئ به من بعده كل طالب حق.

وقد جمع العلامة الندوي بين العقل والقلب جمعًا عادلاً متَّزنًا يندر نظيره في عصره، وذلك لأن أصحاب الفكر عامة لا يلقون بالاً إلى إصلاح القلب، وأما من كان همّه إصلاح القلوب وتزكية النفوس فلا يلتفتون إلى هذا الجانب المهم ألا وهي الدنيا وما يتعلق بشئونها، وقد ألقى الشيخ الفقيه المفتي محمد تقي العثماني ضوءًا كاشفًا على ميزته تلك الخاصة حيث قال:

"ربما يعتني الرجل بجانب إصلاح القلب وتزكية الباطن وهو جانب مهم لا ريب فيه، ويعرفه الناس باسم التصوف والسلوك، فإنه يعتزل عن

الناس، ويعتكف في زاوية من الزوايا، ويشتغل بإصلاح قلوب من يتصل به، لكن أثر جهوده الاصلاحية والتربوية محدود في نطاقه محصور بين مسترشديه، وأما الشيخ أبو الحسن علي الحسنى الندوي فكان إمام طريقة التصوف والسلوك، وكان له أن يشغل نفسه بعمل التزكية وإصلاح الباطن، ويصرف عما يعانيه العالم الإسلامي من المشاكل والتحديات؛ ولكن أبته همتُّه العالية، ولم يرض به؛ لأنه يحمل في قلبه هموم الأمة، يتحرق لما أصابها، ويتألم بآلامها، وكان دائم الفكرة فيما ينقذ الأمة من المآزق التي وقعت فيها، ويأخذ بيدها إلى شاطئ النجاح والفلاح، ومما يمتاز به العلامة الندوي أنه يملأ إهابه حب الأمة الذي يدفعه إلى طلب حلول ناجعة لقضاياها الاجتماعية المعاصرة، معرضا عنايته عن شواغل التصوف السائد، لأن مجال عمله كان أوسع منه بكثير".

ومن أهم ما يمتاز به العلامة الندوي أنه لم يتخذ الوسائل غاية؛ بل اعتبر الوسيلة وسيلة، والغاية غاية، وكان يرى ذلك همزة وصل بين مختلف طبقات الأمة، كما يعتقد أن الغاية لكل طبقة من طبقات الأمة واحدة، وهدفها واحد، وهو خدمة الدين، وإعلاء كلمة الله في الأرض، والحصول على رضاه، ولتحقيق هذه الأهداف وسائل متعددة وطرق متنوعة، لا يجوز أن يؤكد على طريقة دون طريقة، لأن ذلك يؤدي إلى تفريق في صفوف الأمة.

وقد وهب الله سبحانه الشيخ الندوي نصيبًا أوفر من الحكمة، ورزقه ملكة صالحة للدعوة والإصلاح وخبرة تامة بأساليبها ومعالجة أمورها، فإنه كان يجهر بالحق، ويخاطب الأمة بكل جرأة لا يخاف في سبيله لومة لائم، ويصدع بكلمة الله علنًا وجهارًا، لكن بالحكمة

والموعظة الحسنة، فيوقع أوتار النفوس، ويقع كلامه منها موقعًا حسنًا، فتنجذب إليه القلوب، وتصغي إليه الآذان، خاطب العامة والخاصة والأمراء والدهماء، فأثر بسحر كلامه وفصاحته وبلاغته وفوق ذلك بزهده وعفافه عن حطام الدنيا والرغبة عما أيديهم من المال وزخارف الحياة، ويتجلى ذلك من مظاهر حياته البسيطة الساذجة.

ولما اشتعلت نيران القومية العربية في العالم العربي، فنهض العلامة الندوي يقاوم تلك الفتنة القومية، وقام بالنقد البناء الإيجابي على جمال عبد الناصر، كما انتقد موقف كمال أتاتورك بكل جرأة ومنهجية، إلا أنه لم يندفع الى إحداث ثورة في أوساط الدولة وأعيانها لأنه كان في نقده متأسيا بقول الله سبحانه على لسان سيدنا شعيب عليه السلام: "إن أريد إلا الإصلاح ما استطعت وما توفيقى إلا بالله عليه توكلت واليه انيب".

وقد خرج بمنهج أفضل وأصلح للأمة والعاملين في مجال الدعوة والإرشاد، وهو التركيز على إيصال الايمان إلى الحكام، بدل التركيز على وصول جماعة مؤمنة إلى كراسي الحكم، وكان يقول: إن هولاء الحكام إذا خافوا على أنفسهم أوانقراض دولتهم فإنهم يؤثرون كسر كرسي الحكم بدلا أن يتنازلوا عنه لغيره، وذلك – لا شك – يؤدي إلى إخلال في الأوضاع وإفساد في المجتمع وإزهاق للنفوس والأرواح. فكان يرى من الأنسب والأصلح أن تتركز العناية على إيصال الإيمان إلى الحكام وأصحاب المناصب العليا، ومما ساعد على نضوج هذه الفكرة لديه تجربة الإمام السرهندي الذى غير الوضع بمنهجه السليم وأحدث انقلابا سلميا طوعيا في عصرالإلحاد والزندقة، وبفضل حكمته وجهوده

الصالحة شاء القدر أن يتربع على عرش الدولة المغولية السلطان الصالح العادل أورنك زيب عالمكير.

تمتاز جهود الشيخ الندوي بالشمول والسعة والتفنن، فقد كان معلما ناجحا، مربيا محنكا، مصلحا مؤمنا، ومن كبار قادة الفكر الإسلامي وأماثل العلماء في عصره. واستفادت الأمة الإسلامية بعلمه الغزير وفكره الإسلامي الحصيف، ومناهج تربيته الدينية المتزنة بالتوحيد الخالص النقي.

ولانبالغ إذا قلنا: إنه كان شخصية القرن العشرين بحق بناءًا على جمعه العادل بين القديم والجديد، بين الأصالة والمعاصرة، بين العقل والنقل، بين الدين والدنيا، وبين العلم والايمان، وبين الثبات والتطور، قلما نجد ذلك عند غيره من الدعاة والمصلحين.

الدعوة إلى الله

الدعوة الدينية شعار هذه الأمة ودثارها، وقد نيط بها وجود أمة تحمل مسؤلية القيادة والوصاية للعالم البشري، وقد نسيت الأمم الغابرة قبل الأمة المحمدية أو أعرضت عن تلك الوظيفة التى ألقيت على كواهلها وورثتها بعد الأنبياء، إلا أن الأمة الإسلامية قامت بالحفاظ على كل ركن من أركان الدين الإسلامي، وتعاليمه السمحة، وواجه علماؤها ودعاتها وأصحاب الإصلاح والتجديد كل فتنة ألمت بالأمة المسلمة في تاريخها الطويل، وقاموا بإنشاء المجتمع الإسلامي المثالي وإقامة الدين فيه على أسس متينة ثابتة، وضحوا بكل نفيس وغال من أجل تعميقه في القلوب وترسيخ دعائمه في النفوس، بجانب تقديم دعوة التوحيد ونظامه الحي الخالد إلى من لا يعرفها ويجهل أهميتها وقيمتها

ورسالتها في الحياة، حتى أقبلوا عليه وعرفوا قيمتها وأهمية رسالتها فاعتنقوا الدين الإسلامي، واتسعت بذلك رقعة الدولة الإسلامية وقد ظل عمل الدعوة الإسلامية وتوسيع نطاقها مستمرا في كل زمان بسرعة تارة، والبطء أخرى إلا أنه لم يتوقف في كل فترات التاريخ الإسلامي قط، ولم يتعرض للجمود والركود والتعطل، مواجها الأعاصير الشديدة وعواصف المقاومة الهوجاء.

بنى الشيخ الندوي – مثل سلفه الصالح – منهجه في الدعوة والإصلاح على الأسس الإسلامية المتينة، وبجانب هذا المنهج اهتم _ رحمه الله_ بالحكمة والموعظة الحسنة ممتثلا للحكم القرآني: "ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ" [سورة النحل، الآية: ١٢٥].

وقد قام العلماء وأصحاب الدعوة والتجديد بواجبهم الديني عاملين بتوجيهات القرآن والسنة الرشيدة ومراعين لأوضاع كل عصر وملابسات كل بيئة.

واذا ذهبنا نستعرض تاريخ الدعوة والإصلاح والتجديد وجدنا أن مناهج الدعوة الإسلامية ظلت مختلفة باختلاف العصور والبلاد ومتطورة بتطورات الحضارات والثقافات، ببقاء الدين الإسلامي على أصالته ونزاهته وشدة التمسك بأصله وجوهره، فالدعوة الإسلامية قامت بمراعاة الطبيعة البشرية والعوامل والأحداث، واعتبرت التطور عاملا طبيعيا، فوضع المناهج الدعوية وفق تقلبات العصر وأحداثه أمر لابد منه في سبيل نشر الدعوة لأن الغفلة أو التجاهل عنه يفضى بعمل الدعوة إلى أزمات شديدة وخسارة فادحة.

الدعوة إلى الاعتدال في الفكر:

وإذا قمنا باستعراض مدارس الفكر الإسلامي المعاصرة في الهند وجدناها تنقسم إلى ثلاث: فأما المدرسة الأولى فإنها تهدف إلى إصلاح القلوب وتهذيب النفوس، وتعتقد النقص في جانب الأخلاق والغفلة عن مقومات الأمة المعنوية سببًا قويًا في تخلفها وانحطاطها، وأما المدرسة الثانية فإنها تؤثر منهجية المقاومة، وترى تقدم الأمة وازدهارها في الجدال والخصام، وتستدل بأن الحق لا يغلب عليه شيء، فلابد من بذل الجهود والمحاولات لكي يغلب الحق وتكون كلمة الله هي العليا، مهما كانت الأحوال والظروف، ومهما كانت الوسائل والأسباب، فإنها لا تعطي عناية كبيرة بدراسة الأسباب والعوامل في تخلف الأمة وتدهورها، وأما المدرسة الثالثة التي يرأسها الشيخ الندوي فإنها المدرسة التي تقوم على الوسطية والاتزان في الفكر والسلوك، في الدعوة والإصلاح، وتدعو إلى الجمع العادل بين الدين والدنيا، والعلم والعمل، وبين الأسباب والغايات، وبين الأصالة والمعاصرة، وبين العناية بتزكية الروح، وإصلاح الباطن، وبين بذل الجهود لإقامة دين الله في أرض الله، وإنها لفكرة معتدلة متزنة جامعة شاملة دعا إليها الشيخ الندوي في كتاباته ومؤلفاته وخطبه ومحاضراته، وقدم لنا بحياته المتسمة بالوسطية والاعتدال نموذجا عمليا واقعيا، وسعى لبث فكرتها بين العلماء والمفكرين والقادة والزعماء.

كان الشيخ الندوي يرى إصلاح الأمة وتقوية معنوياتها وتعزيز كيانها الداخلي من أولويات الدعوة التى لا بد من التمسك بها، ثم دعوة الأمراء والسلاطين وأصحاب السلطة إلى الدين الإسلامي

الحنيف، لذا آثر الإبتعاد عن أسلوب المواجهة والصدام، واتخذ لنشر دعوته وفكره، طريق الحكمة المبني على الوسطية، البعيد عن التشاجر والانفصام، فقد كان يعتقد أن تركيز العناية بإصلاح فئة من الناس يرجى وصولهم إلى منصب القيادة أو يكون لهم نفوذ كبير في المجتمع الإنساني، تأتى بنتائج حسنة في تغيير الأحوال وإصلاح الظروف، لأن الدعوة الإسلامية إذا وجدت فيهم آذانًا صاغية وقلوبًا متحمسة تتمهد السبل لإقامة الدين الإسلامي وإعلاء كلمته، وتزول جميع ما يعرقل سير الدعوة، وكان يخشى على ضياع المواهب الدعوية وإساءة استخدام الثروة المعنوية للأمة في منهج الصدام وأسلوب المواجهة، واتخذ لذلك الشيخ الندوي عدة خطوات عملية هامة، ويمكن لنا أن نقسمها في عدة جهات: كان يرى من أولويات الدعوة أن تبذل الجهود لإصلاح الطبقة المثقفة (intellectual class) وتقريبها إلى الفكر الصحيح للاسلام، فدرس بكل جدية عقليتها ومزاجها واطلع على نفسيتها عن كثب، وخاطبها بأسلوب سائغ تألفها، ويلائم طبيعتها ويوافق مزاجها ويناسب ذوقها ووجدانها، فكان لكلامه وكتاباته الأثر الكبير في تغيير أفكارهم إلى الأحسن والأفضل، ومن كتبه الشهيرة التى أثرت على الطبقة المثقفة ثقافة عصرية، وتلقت لديها قبولا واسعا "ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين" وان لهذا الكتاب صدى واسعًا في أوساط الشباب المثقف، وتوعيتهم بزاد الفكر الإسلامي الصحيح، وتوجيههم فكرًا وسلوكًا، وظهرت آثاره الطيبة البعيدة الأثر في مختلف أقطار العالم الإسلامي.

واتصل الشيخ الندوي لإيقاظ الطبقة المثقفة ونفخ روح الإسلام في قلوبها، بأساتذة الجامعات العصرية والمسؤولين عنها وطلبتها في الهند،

وفي جامعات العالم الإسلامي ، وذكرهم بما عليهم من واجبات نحو تربية الجيل الإسلامي الجديد ، وركز العناية على إصلاح النظام التعليمي السائد في الجامعات ، وكشف القناع عن مفاسده وآثاره الفاسدة ، وأكد على تغيير النظام التعليمي والمنهج الدراسي في جامعات العالم الإسلامي بما يلائم طبيعة الإسلام ويحقق متطلبات العصر بدون إضرار بروح الدين.

وقد سنحت له – بفضل الله وكرمه – فرص للتحدث والحوار مع القادة والزعماء ووزراء شؤون التعليم والتربية ، فقد ألقى بهذه المناسبة كلمة حماسية متدفقة بالحب والحنان والحنين إلى شباب الأمة وتربيتهم تربية دينية ، وليتك رأيته وهو يتحدث عن إصلاح المنهج الدراسي كأن كلماته تخرج من القلب فتصل الى القلب ، وقد قام بكتابة الرسائل إلى القائمين على الجامعات والمدارس الإسلامية ، يذكرهم بما عليهم من الواجبات نحو الطلبة والدارسين ، وينصحهم بالخير ، ويعظهم بالحكمة والأسلوب الهادئ ، فكل كتاباته تدل أنه بذل ما وسعه من جهد لإصلاح النظام الدراسي في الجامعات العصرية والمدارس الإسلامية وأنه يرى فيه تقدم البلاد ورقيها وازدهارها إذا قامت بالتعديل الصحيح في نظام التعليم السائد.

وإن المجال الثاني الذي أولاه الشيخ الندوي اهتمامه الخاص ، هو اتصاله بأرباب القيادة وزعماء البلاد ، ومحاولة تثقيف أفكارهم وتوعية عقولهم بالفكر الإسلامي الصحيح ، وذلك عن طريق كتابة الرسائل والحوار ، والمحاضرات والكتب ، واللقاءات الشخصية وإلقاء الخطب والدروس ، وآتت جهوده – بحمد الله وفضله – نتائج إيجابية حسنة في مختلف أقطار العالم الإسلامي ، وسنتحدث عنها في الصفحات القادمة إن شاء الله.

وأما المجال الثالث الذى صب فيه الشيخ الندوي جهده وعصارة فكره، هو مجال الأدب، فقد استخدم قواه الأدبية ومواهبه البيانية للإصلاح والتجديد والبعث الإسلامي الجديد، وكان ذلك في العصر الذي كان الأدب تحت سيطرة الأدباء المتحررين، ويغلب عليه طابع أفكارهم الفاسدة الملحدة، وكانت كتاباتهم تفسد عقول الشباب المسلم، وتوجهه إلى الفساد والأنانية والأثرة والشح، ونتيجة لذلك تولد النفور عن التعاليم الإسلامية والمفاهيم الدينية، فقد قام لمواجهة هذه الموجة العارمة للأدب المتحرر عن القيود ودرس أبعادها، وقام بثورة أدبية إسلامية، وبيَّن بصراحة: أن الأدب إذا بقي تحت سيطرة الأدباء الملحدين المتحررين ولا يقام أمامهم سد منيع فلم يبق لنا سبيل لإنقاذ الشباب من وقوعهم في مهوى سحيق، وقد درس الشيخ الندوي الأدب العربي، وسبر أغواره وأنجاده، واطلع على خفايا تاريخ الثقافة العربية فنهض بنفسه لسد هذا الفراغ ومواجهة موجة الأدب وفكرته الفاسدة ونجح في توجيه الأدب إلى وجهة رشيدة صالحة بناءة، ودعا إلى توسيع رقعة الأدب كما دعا إلى عرض وتقديم النماذج الأدبية من أمهات المصادر الإسلامية، وبفضل دعوته الحثيثة ظهرت في سماء الأدب شخصيات أدبية يتسم أدبهم وأسلوبهم بالفكرة الإسلامية السليمة، وتحرر الأدب إلى حد كبير من سيطرة الأدباء المتحررين المتنورين، واطلع الشباب على أدب صالح بناء غير الأدب الذي تألفه قلوبهم وتهوى إليه نفوسهم وتستسيغه عقولهم، ولعبت جهوده دورا ملموسا في إصلاح القلوب المريضة وإرشاد النفوس التائهة.

إن لكل أمة تاريخها، تاريخ التقدم والازدهار وتاريخ التخلف

والانهيار، وإن مستقبل الأمة مربوطة بتاريخها الماضي، لذا لا يمكن لأي أمة راقية متقدمة أن تصرف أنظارها عن تاريخها، لأنه يخبأ لها خير ما يرشدها في المستقبل وينقذها من إعادة الخطأ الذي ارتكبته في الماضي، ويسيرها إلى التقدم والرقي على بصيرة وهدى، ويمهد لها كل طريق شاق، ويحل لها كل معضلة غامضة مستعصية، وكان مما امتاز به الشيخ الندوي من بين قادة الفكر الإسلامي أنه درس التاريخ بإمعان، وغربل حقائقه، وسبر وهاده وانجاده، واستخرج للأمة كنوزا غالية وجواهر ثمينة، وقدم ما يفيد الأمة وخاصة الشباب المثقف.

ومن أعماله العظيمة ومآثره الكريمة على مستوى البلاد أنه بذل جهودا جبارة لإنشاء جو التعايش السلمي الآمن بين المسلمين والهنود، وأسس لذلك حركة " رسالة الإنسانية" التى تهدف إلى إقامة مجتمع يعيش فيه أفرادها بحب ووداد على اختلاف مذاهبها وأجناسها وألوانها، وأثبت الشيخ الندوي عن طريق حركة رسالة الإنسانية، أهمية المسلمين ودورهم في تقدّم البلاد، لأن كل أمة تحتاج إلى أن تثبت جدارتها واستحقاقها ونفعيتها في العالم، فتحققت تلك الحاجة – بحمد الله – ومهدت السبيل لحركات إصلاحية دعوية فكرية.

طريقان لإعلاء الدين الإسلامي:

إن عمل الدعوة والإصلاح في أوساط الأمراء والسلاطين يقتضي حزمًا وبصيرة، ويتطلب من الدعاة والعاملين للإصلاح حكمة وأسلوبًا هادئًا رزينًا، لذا لابد من تغيير أساليب الدعوة ومناهج الإصلاح بتغير الأحوال والظروف واختلاف الأمصار والبلاد، كما لابد من رعاية اختلاف طبائع المدعوين ونفسيتهم.

إذا قمنا باستعراض تاريخ المناهج الدعوية والفكرية والإصلاحية نجد أنهم يتفقون – على اختلاف مناهج الدعوة والإصلاح عندهم – على منهجين أساسيين للغلبة والانتصار، ولاشك أنهما أكثر نفعا وأعم إفادة للأمة الإسلامية، ولكن يقتضيان الرعاية المطلوبة والترتيب الدقيق المتزن العادل النزيه، وربما يؤدي عدم العناية بهما إلى إخلال في نظام العمل الدعوي، وحدوث ثغرات واسعة وعراقيل ضخمة في سير الدعوة.

فأما الطريق الأول الذي أكثر الطرق الدعوية تأثيرا وأعمها نفعا وصلاحا. هو إيصال الفكر الإسلامي الصحيح النزيه إلى أرباب الدولة وأصحاب النفوذ والتأثير أو إلى من يرجى لهم الحصول على الحول والطول في المستقبل، فلابد من تركيز العناية عليهم وتربيتهم على المبادئ الإسلامية الصحيحة بأسلوب يتفق مع طبائعهم، وينسجم مع عقولهم ونفسيتهم.

والطريق الثاني هو إيصال جماعة مؤمنة واعية تحمل روحا إسلامية وفكرا إسلاميا إلى مناصب الحكم ومواقع النفوذ والتأثير، ولاشك أن كلا الطريقين تحملان النفع العظيم وتقدران على تغيير الظروف الفاسدة وإحداث الثورة الصالحة في المجتمع والبلاد، وربما يضطر العاملون في حقول الدعوة والإرشاد وفق مقتضيات الظروف إلى استخدام الطريق الثاني للمهمة الإصلاحية التي يتوخونها، واكثر ما يكون ذلك إذا انقطع حبل الرجاء من العمل الدعوي، وعم اليأس والقنوط، وفقد الطريق الأول تأثيره على النفوس والقلوب، ولا يبقى أمام المصلحين والدعاة إلا طريق الانقلاب وإحداث الثورة ضد الحكومة الطاغية واكتساب القوة والوصول إلى مواقع التأثير، فيلزم لهم القيام

بإزالة العراقيل والحواجز عن سبيل الدعوة والجهاد الحاسم ضد القوى المضادة في ضوء الشريعة الإسلامية مراعين الأصول والقيم الدينية، ونجد له أمثلة كثيرة يتجمل بها تاريخنا الإسلامي المشرق، إلا أن الطريق الأول هو أكثر المناهج تأثيرا وأعظمها فائدة في عامة الأوضاع، أعني به محاولة إيصال الفكر الإسلامي الصحيح إلى الحكام والقادة والزعماء أو من سيتولى زمام القيادة في المستقبل، وتزويدهم بالفكرة الإسلامية العادلة ومنهج الدين الإسلامي العادل للحكم والوصاية على الشعب، وإيقاظ الشعور فيهم وتربيتهم تربية دينية، ويدل تاريخ الدعوة والإصلاح أن منهج دعوة القادة والزعماء إلى الفكر الإسلامي وتقريبهم إلى الإسلام بأسلوب هادئ رزين، هو المنهج المتبع السائد عند عامة أصحاب الإصلاح والتجديد، وأتى بثماره الطيبة الناضجة.

قصص تربية السلاطين والأمراء على المبادئ الإسلامية:

ويذكر التاريخ الإسلامي كثيرا من روائع القصص التي تشتمل على نقد العلماء والمصلحين على السلاطين والأمراء في عصورهم، ومنها ما نجد أن سيد التابعين سعيد بن المسيب قام بالنقد الشديد على الخليفة الأموي يزيد بن عبد الملك، وعاتبه مرارا وتكرارا، ونجد كذلك أن إمام دار الهجرة مالك بن أنس وجه رسالة تشتمل على النقد اللاذع إلى الخليفة هارون الرشيد وأرشده إلى الحق والرشد والصواب، وسار على درب العلماء الصادقين الربانيين الإمام أحمد بن حنبل حيث قام أمام فتنة خلق القرآن أيام المعتصم الخليفة العباسي، واستقام على الحق وجادة الصواب، وظل يقوم بدعوة الخليفة إلى ما هو عليه من الرشد والسداد، كما قام بواجب إرشاد الخليفة من بعده المتوكل إلى الحق

والابتعاد من الباطل، وبذل له النصح الجميل، وبات في معسكره عدة ليالي يرشد الضالين ويوقظ في نفوسهم الغيرة الإسلامية ويعلمهم أمور دينهم، ثم الإمام الأوزاعي الذي مازال يكتب إلى الأمراء والسلاطين رسائل قيمة مملوءة بالنصح والإرشاد ولما اتصل بهم وعظهم موعظة بليغة مؤثرة وجلت منها القلوب وسالت بها الدموع ورقت بها النفوس.

دخل الإمام الغزالي يوما على الملك السنجر في قصره فنبهه على بعض تقصيراته في إدارة البلاد دون مهاباة بمكانته كما وجه إلى أخيه محمد أكبر الأمراء في عصره رسالة مفعمة بالجرأة والشجاعة الدينية تشتمل على إيقاظ الشعور في نفسه بمسؤولية البلاد والرعية وإصلاح أمور الدولة والخشية من الله العلي القادر في جميع تصرفاته وأفعاله، وإن السلطات الشرقية يديرها عامة الوزراء والأمراء تحت إشراف الملك وهم يملكون القوة الحاكمة والمنفذة، نظرا إلى ما يملكه الوزراء من القوة المنفذة والمكانة القوية عند السلاطين كرس الإمام الغزالي جهده إلى إصلاحهم وإرشادهم نحو المعاني الكريمة وتربيتهم على المفاهيم الدينية، فكتب إليهم رسائل طويلة جامعة مؤثرة.

وقدم الشيخ عبد القادر الجيلاني أمثلة رائعة في تاريخ الإصلاح والتجديد، يتصل به الغني والفقير والأمير والمأمور فيشملهم بالموعظة والنصيحة، ويأمرهم بالمعروف، وينهاهم عن المنكر، وحدث مرة أن الخليفة المقتضي لأمر الله عين عاملا كان اسمه ابن المرحم الظالم ولما بلغ ذلك الشيخ الجيلاني فنبهه على ذلك فعزله الملك على الفور.

ومن هذه الطائفة الميمونة المباركة الشيخ الخواجه عبيد الله الأحرار الذي كان من كبار مشايخ الطريقة النقشبندية بل كان إماما فيها، يحتذي

بحذوة العلماء الربانيين في دعوة الأمراء والسلاطين إلى تطبيق الأحكام الإسلامية والتعاليم الدينية على أنفسهم ومراعاتها في إدارة أمور الدولة، وجرى على سنته تلك الإمام المجدد أحمد السرهندي مجدد الألف الثاني كما يتجلى من كتاباته القوية ورسائله البليغة في توجيه الأمراء والسلاطين في عصره، يكتب الشيخ الإمام السرهندي في رسالة يتحدث فيها عن الشيخ عبيد الله الأحرار: "إنه كان يحضر مجالس الأمراء والسلاطين، فيتأثر الملوك والأمراء بصفاء طبيعته وقوته الباطينية حتى ينقادون له في كل أمر يأمرهم أوينهاهم، ويمتثلون لأمره".

وممن سلك مسلكهم الإمام أحمد بن تيمية الذي قامت بينه وبين سلطان التتار الملك قازان (الذي شن الهجوم على البلدان الإسلامية وفتح الشام، وطاح بعروش الأمراء والسلاطين حتى دبت في قلوب المسمين هيبته) مفاوضات، فتحدث معه بحكمة عظيمة وأسلوب هادئ غير مجامل، فتأثر به وبكلامه تأثرا عظيما، وأمر بإطلاق سراح عدد كبير من المسلمين، وأكرم وفادة الشيخ حتى انصرف من مجلسه بإكرام.

وجرت بين المسلمين والتتار حرب دامية سنة ٧٠٢ الهجرية، ورجع المسلمون منها بالفتح المؤزر، وكان ذلك بفضل مشورة الإمام بن تيمية.

وعلى رأسهم شيخ الإسلام عز الدين بن عبد السلام الذي يجله كبار السلاطين في عصره ويحترمونه إلا أنه كان من عادته عدم الحضور في مجالس الخلفاء والأمراء، فيأتي إليه الملوك ويشاورونه في أمور السلطة وإدارة البلاد، وإذا أصروا عليه بالحضور حضر بإرادة مناصحة الملوك وتوجيههم إلى وجهة رشيدة في إدارة البلاد، وأشار عليهم بما ينفع الإسلام والمسلمين.

ومن مأثرة الشيخ أنه أشار السلطان الملك الأشرف بمحاربة التتار وإزالة ما تفشي في البلاد من المنكرات، ومنع المحرمات، ورفع المكوس عن المسلمين، فامتثل السلطان لأمره وتقدم فورًا بإبطال ذلك كله.

ولما توجه التتار إلى مصر وتسرب إلى نفوس سكانها الخوف والهلع حتى فقد سلطان مصر قوة الدفاع عن وطنه وتثبطت همته فشجعه الشيخ وعرّفه بأهمية التوكل على الله والاعتماد على قدرته وقال: ..أخرج، بسم الله معتمدًا عليه وأنا أضمن لك الفتح في المعركة فاعتذر بقلة ماله فقال له: تصدق بما فيه أيدي الحرم الملكي من الجواهر والحلى فجمعت هذه الأموال وضربت سكًا ونقدًا وأنفقت في تجهيز الجيش لمحاربة التتار وقد رزقه الله سبحانه وتعالى هيبة في القلوب ورعبًا في النفوس فلم يمتنع أحد من الملوك والأمراء من التصدق بما في أيدي أزواجهم من الحليّ والجواهر وكفت نفقة الحرب، وبفضل مشورته وحسن تدبيره حصل للمسلمين الفتح المؤزر في معركة "عين جالوت".

وقد ولي عدة سلاطين في عصره وأما الشيخ فقد ظل مستمرًّا على طريقته من مناصحة الأمراء وإرشادهم إلى معاني الخير والفضيلة ومنهم الملك الظاهر بيبرس الذي كان يحترم الشيخ ويحله مكانًا ساميًا ولا يصدر إلا عن رأيه، وقد أصدر أوامر هامة بمشورته وهجم على التتار هجمات متتالية وحصل على الفتح المؤزر.

وزخر تاريخ الهند بوجود العلماء والمصلحين والمجددين الذين كانت لهم مواقف مرموقة في الجرأة بالحق ومناصحة الحكام والملوك في كل مناسبة، وعلى قائمتهم مجدد الألف الثاني الشيخ أحمد السرهندي الذي نهض لإصلاح ما أفسده الامبراطور المغولي أكبر من فرض الدين الجديد

"دين إلهي" على الرعية وهتك المحرمات وقلب الفكرة الإسلامية السليمة، وكان هذا المناخ الفاسد المنقلب المملوء بالفوضى الفكري كان أكبر تحد في عصر الشيخ السرهندى، فقام لمواجهة هذه الأزمة وأداء هذه المسؤولية الضخمة وظل قائمًا بنشاطاته الدعوية والإصلاحية وتوجيه رسائل التذكير إلى الأمراء والمقربين عند الملك حتى بلغ مرامه من استئصال شأفة الشر من جذورها، وبفضل جهود الشيخ السرهندي كذلك أن تأثر به السلطان جهانكير ونشأت فيه نزعة دينية جديدة وعناية بأوامر الإسلام. وهكذا أعاد الشيخ بناء الإسلام وجدده بعد ما دمره الملك أكبر.

وتولى الخلافة بعد جهانكير ابنه شاهجهان وكان يهتم بأداء ما عليه من الفرائض الشرعية، ويدني العلماء والصلحاء ويكرمهم ويصب عليهم من نعمه، وقام بفرض الحظر على بعض ما يخالف الشرع من الطقوس والعادات، وتولى الخلافة بعده الملك الصالح المصلح أورنك زيب الذي لقب بـ"سادس الخلفاء الراشدين" بعدله وعفافه وورعه وصلاحه، وكان تلميذًا خاصا لابنه خواجه محمد معصوم ومن مسترشديه، وأمر ابنه سيف الدين على طلب من الملك أورنك زيب أن يقيم في مدينة دلهي، يقوم بأعمال دعوية إصلاحية تربوية فقام وأحسن القيام.

ومنهم المحدث الشاه ولي الله الدهلوي الذي عاصر الدولة المغولية في محتضرها وفي آواخر أيامها إلا أنه حاول ما أمكنه من تعزيز كيانها وإصلاح ما فسد منها واستكمال ما نقص من قوتها فنصح الملك ووجه الرسائل إلى أمير الأمراء النواب نجيب الدولة وأشار عليه بأمور عسكرية ودولية، وبدعوة منه قصد السلطان أحمد شاه الأبدالي الهند وهزم

المرهتة هزيمة نكراء وحاول استجماع ما انتشر من قوة الدولة المغولية ثم انصرف إلى وطنه.

منهج الشيخ الندوي في مناصحة الحكام:

وفي العهد الأخير برز الإمام السيد أبو الحسن علي الحسني الندوي من بين أصحاب الدعوة والإصلاح بمنهجه الجامع المعتدل وطريقته الحكيمة الناصحة ونهض لمهمة مناصحة الحكام والامراء وتزويدهم بالفكرة الإسلامية وتقريبهم إلى المناهج الإسلامية بأسلوب هادئ رزين، وتكوين سلوكهم بالتعاليم الإسلامية، وقد نشأ الشيخ في بيئة دينية علمية، وتشرب حب التاريخ الإسلامي الممتد على القرون من نعومة أظفاره، وكان في بيته مكتبة واسعة تشتمل على كتب التاريخ والأدب، فدرسها بشوق واستفاد منها خلال أيام التعليم، ثم لما تخرج في دار العلوم لندوة العلماء أكب على مطالعة الكتب التاريخية والأدبية وتاريخ الأديان والمذاهب والفرق، كما درس بجدية كتب الفكر الإسلامي والصحف والمجلات التي تتحدث عن الأوضاع المعاصرة في العالم حتى ازدادت خبرته، وتوسع نطاق علمه ثم مال إلى دراسة اللغة الإنجليزية حتى حصلت له فيها ملكة صالحة للاستفادة المباشرة من الكتب الإنجليزية وقد رزقه الله سبحانه وتعالى موهبة علمية وذوقا صالحا لدراسة التاريخ كما رزقه لوعة الدعوة إلى الله سبحانه بحكم نشأته في بيت علم ودين يجمع بين الأصالة والمعاصرة، وزادته دراسة الكتب الإسلامية والتاريخية شوقًا إلى نشر الدعوة الإسلامية لأنه درس التاريخ بإمعان وقصد منه بث الفكرة الإسلامية ونشر الدعوة الدينية وسبر وهاده وأنجاده وغربل حقائقه فاستخرج للأمة كنوزًا غالية وجواهر ثمينة لا

تصل إليها أنظار الدارسين عامة، استفاد الشيخ الندوي من التاريخ الإسلامي لأصحاب الدعوة والإصلاح والتجديد الممتد على القرون واطلع على ما مرّوا بها من الظروف والأزمات الشديدة في حقول الدعوة الإسلامية واستخدم تلك التجارب في تطبيق منهج الدعوة والإصلاح وقد قدم الشيخ الندوي بفضل دراسة التاريخ مناهج الدعوة التي تظل منارة نور وهداية للعاملين في حقل الدعوة والإرشاد.

يقول الشيخ يوسف القرضاوي: نحن ندرس كتب السيرة والتاريخ فنمر بها مرًا سريعًا إلا أن الشيخ الندوي فيستخرج من بحره جواهر ودررًا لا تصل إليها الأنظار.

كانت حياة الشيخ الندوي تتصف بما لابد لمن يقوم بالعمل الدعوي والإصلاحي على نطاق أوسع، فكان بصيرا بمقتضيات الظروف والأوضاع، وإماما مدبرا حكيما، وليس عارفا بمناهج اللغة وأساليب الأدب والبيان فحسب؛ بل كان ممن قام بتوجيه الركب الأدبي إلى وجهة رشيدة، وكان يملأ إهابه حب الإنسانية والأمة الإسلامية، كانت سجاياه كلها تشف عن خلق النبي الأعظم معلم الإنسانية الأكبر من طول السهر لتقدم الأمة ودوام الفكرة.

ولابد للداعية وخاصة إذا أراد أن يقوم بالعمل الدعوي والإصلاحي في طبقة الأمراء والملوك أن يكون عفيفا وزاهدا فيما في أيديهم من المال والجاه والسلطان، وكان الشيخ الندوي بلغ من الزهد والعفاف قمة عالية، وذكر الناس بحياة السلف الصالح، فقد حضر على بابه الأمراء والوزراء وربما دخل بنفسه قصر السلاطين ولكن لا دخول سائل يرجو منهم المنفعة الدنيوية، بل دخول داعية إسلامي بمعنى

الكلمة، أتى ليستفيد منه الأغنياء، فقام بمناصحتهم وإرشادهم، وذلك بأسلوب لين هادئ، تستميل النفوس وتؤثر في القلوب، والزهد من صفته أنه إذا اتصف به الإنسان فيحدث فيه نوعًا من الفظاظة في الخلق والغلظة في القلب وأسلوب الكلام ولكن الشيخ الندوي على الرغم من اتصافه بالزهد المثالي والعفة النادرة، كان ذا قلب رحيم ولسان لين وشخصية محببة تهواها النفوس.

وكان يرى المنهج الأول هو الأصلح والأجدر لإقامة الدين الإسلامي، وكان مقتديا فيه بمجدد الألف الثاني الشيخ أحمد السرهندي.

سافر الشيخ سنة ١٤١٤الهجرية إلى شكاكو فزاره الطلبة، ومن يتصلون به، فطرح عليه بعض من حضر في مجلسه سؤالا " ما هو الطريق الأجدر لإقامة الدين الإسلامي على وجه الأرض؟" فرد عليه الشيخ الندوي قائلا:

"هناك طريقان للغلبة والانتصار: الأول: التركيز على إيصال الايمان إلى الحكام. والثاني: التركيز على إيصال جماعة مؤمنة إلى كراسي الحكم، ولكن أخشى في استخدام الصورة الأولى أن هولاء الحكام إذا خافوا على أنفسهم أوانقراض دولتهم فإنهم يؤثرون كسر كرسي الحكم بدلا أن يتنازلوا عنه لغيره، وذلك – لا شك – يؤدي إلى إخلال في الأوضاع وإفساد في المجتمع، وإزهاق للنفوس والأرواح. وأما الطريق الثاني – وإن كان يقتضي مدة مديدة لظهور النتائج المرجوة منه – فهو الأجدر والأصلح لغلبة الدين، وهو تركيز العناية على إيصال الإيمان إلى الحكام وأصحاب المناصب العليا، ومما يدل على فائدة هذه الفكرة وصلاحها تجربة الإمام السرهندي الذى غير الوضع بمنهجه

السليم وأحدث انقلابا سلميا طوعيا في عصر الإلحاد والزندقة، وكان يقول: لا حرج أن يبقى أصحاب الحكم على مناصبهم وإننا نريد الإصلاح في الأرض لا مناصب التأثير والجاه والسلطان".

مجدد الألف الثاني في عصر الإمبراطور أكبر:

إن الثورة على الدين والشريعة الإسلامية التي أحدثها الإمبراطور أكبر. كادت أن تقضي على الإسلام في أرض الهند، لأن التحول الروحي والمعنوي والردة الفكرية والحضارية كانت في عصره أخطر وأدق وأرسخ جذورا من انقراض الدولة والانهيار السياسي، وإنها تحتاج إلى قوة تقوم بإنعاش الروح الإسلامية ومقاومة الفتن الخطيرة واستئصالها من جذورها واستعادة الهند إلى راية الإسلام وحفظها من الارتماء في حضنها، وصيانتها من العاقبة الوخيمة التي تجرعت كأسها المرير أرض الأندلس في القرن التاسع الهجري، وشاء القدر أن يقيض لتحمل هذا العبء العظيم الشيخ الإمام المجدد أحمد السرهندي، وقد خص الشيخ الندوي المجلد الرابع من كتابه " رجال الفكر والدعوة" لبيان ما قام به الإمام السرهندي من الدور الرائع في الدفاع عن الدين الإسلامي وتقويته ونصرته، وبيَّن عمله التجديدي ومحاولات خلفائه ومسترشديه الدينية، فيكتب:

" كانت في هذه الفترة أمام الإمام السرهندي وجميع العلماء الغيارى على الإسلام — الذين كانوا يتحلّون بالعلم الديني، والصلاح الباطني، وكانوا مشغولين بخواص أنفهسم، ويقطعون فيافي السلوك إلى الله، وتملك قلوبهم ومشاعرهم الحمية الدينية الثائرة، والغيرة الإسلامية المتأججة، لمواجهة هذه الأوضاع التي كانت تظل الدولة وتحيط بها، ثلاث طرق:

١ – الطريقة الأولى: أن يعتزلوا الدولة والبلاد، ويتركوا حبلها على غاربها، ويلجؤوا إلى زاوية، يشتغلون فيها بذكر الله – في سكينة وطمأنينة – وتربية الطالبين وإرشاد السالكين، والانهماك في الطاعات والعبادات.

كان هذا هو الطريق الذي اختاره – في عهد الإمام السرهندي – عشراتٌ بل مئاتٌ من العلماء والمشايخ، وكانت لهم رباطات وزوايا في كل بقعة من البقاع، حيث كانوا منصرفين إلى التربية والإرشاد في هدوء وصمت وانهماك، وكان الطالبون والمسترشدون من عباد الله يشدّون إليهم الرحال، ويستفيدون منهم فوائد روحية، وإيمانية كبيرة.

٢ – الطريقة الثانية: أن يقطعوا الرجاء – بصورة حاسمة – من إصلاح السلطان – الذي كان انتماؤه إلى الأسرة الإسلامية اسميًا – ويعتبروه معارضًا عنيدًا للإسلام، تشهد بذلك كثير من القوانين والمراسيم الملكية، وسيرته وسلوكه، وييأسوا من إصلاح الدولة، فيلجؤوا إلى إقامة جبهة دينية معارضة مقابل الدولة والسلطان، وإلى محاربته، والنضال المستمر معه، نظرًا إلى أنه عدو لدود للإسلام، ومعارض دائم للدين، وأن يجمعوا حولهم رجالاً تغلي فيهم الحمية الدينية، وتستولي على مشاعرهم عواطف الجهاد والاستماتة في سبيل الله، ويتميزون غيظًا من الأوضاع الراهنة، من الأمراء والأتباع والمريدين، والمحبين والمعجبين بهم، ويحدثوا – بعد ذلك – ثورة في الدولة، بالإجراءات السياسية والعسكرية، ويحاولوا أن يولّوا السلطة رجلاً صالحًا ديّنًا – ولو كان من الأسرة المغولية، ومن أبناء (بابر) – يغيّر وجهة الدولة، فتتغير الأوضاع، وتتحسن الظروف.

٣ – الطريقة الثالثة: أن يتصلوا بأعضاء الدولة وأمرائها، ويثيروا

الحمية الإسلامية، والعواطف الدينية، فيمن عرفوهم واتصلوا بهم من قبل، ويعتقدون في إخلاصهم، وسمو شخصيتهم، وتوجّعهم للأوضاع، وينفضوا الرماد عن تلك الجمرات الكامنة في قلوبهم، ويشعلوها، وينفخوا فيها، ويحرّضوهم على النصيحة للسلطان، وأن يحرّكوا تلك العروق الإسلامية التي ورثها عن آبائه، وأجداده المؤمنين، ويحملوه على حماية حوزة الإسلام، وتضميد القلوب الجريحة للمسلمين وتدارك العهود الماضية.

وأن يسموا بأنفسهم، ويترفعوا على الجاه والمناصب، ويثبتوا للناس زهدهم وتقشفهم في الحياة، واستغناءهم عمّا في أيدي الناس، ويكلوا الدولة إلى أهل الدولة، والمناصب إلى أهلها، والمتبوئين عليها، ويتظاهروا بإخلاص ونزاهة، وسمو نفس لا ترقى إليه شبهة، ولا يقدر أشد الناس معارضة لهم، وأكثرهم كيدًا وحسدًا، أن يتهمهم بالحرص والطمع في الجاه والسلطان، ولا تنجح أي مؤامرة لإسقاط شأنهم، وحطّ منزلتهم.

أما الطريق الأول فما كان يلائم طبيعة الإمام وعلو همته وشدة عزيمته، وعظيم مكانته التي بوأه الله تعالى إياها، ولا ينسجم معها أيما انسجام.

فقد كان الإمام السرهندي – بعد أن فاز بالتكميل الباطني، والتربية الروحية العالية – على ثقة ويقين تام بأن الله سبحانه وتعالى هيأه لأمر عظيم، وأنه لم يُخلَق للعبادات الفردية المكتوبة، والتقدم في المراحل الروحية فحسب، أو بشياخة الطرق، وإرشاد السالكين فحسب، وقد أباح سرّه، وتحدث عن نفسه عندما أشار إلى قول من أقوال الشيخ الكبير عبيد الله أحرار (المتوفى سنة ٨٩٥هـ) الذي كان

شيخًا رفيع المكانة من مشايخ سلسلة الإمام السرهندي، بل يُعتبر إمام هذه السلسلة – يقول: كان الشيخ عبيد الله أحرار يقول:

"لو تصديت للشياخة والإرشاد، وأخذ البيعة من الناس، لما وجد أي شيخ من مشايخ الطرق من يبايعه، وينخرط في سلك مريديه، ولكن الله تعالى أراد بي أمرًا آخر، وهو نشر الشريعة السمحة، وتأييد الملة الحنيفية".

ثم يقول الإمام تعليقًا على ذلك: "كان (الشيخ الكبير عبيد الله) يدخل على السلاطين، ويحضر مجالسهم، ويؤثّر فيهم بقوته الباطنية، وملكته الروحية، فينقادون له، ويطيعونه، ثم يستعين بهم في نشر الشريعة".

أما الطريق الثاني، فإنه لا يسلكه من الدعاة أو القادة إلا صاحب عقلية سياسية، قاصر النظر، محدود التفكير، الذي يبدأ عمله من الشك وسوء الظن، ويجعل الحكومة – بتسرّعه وترجيح إقامة الجبهة المعارضة على حكمة الدعوة وعاطفة الإصلاح والنصيحة – تقف إزاءه وجهًا لوجه، وتعارضه من أول الطريق، وهو بذلك تضيق عليه الأرض بما رحبت، ويقلل إمكانات انتصار الدين، وهيمنة الشريعة.

وليس هذا طريق الداعي الموفّق إلى الله، الذي لا يريد لنفسه ولحزبه علوًا في الأرض، وسيطرة على الحكم، بل كلّ همه أن يظهر الدين، وتنفذ أحكام الشريعة، وتصلح الدولة، كائنًا من كان المنفذ لهذه الأحكام المسيطر على البلاد.

وكان القيام بتكوين جبهة معارضة للدولة، وإعلان الحرب عليها محفوفًا بالصعوبات والأخطار، وكانت هذه الخطوة – في الأوضاع السياسية السائدة في البلاد – نوعًا من الانتحار في حق الإسلام، لأن الدولة المغولية، التي وطد أركانها السلطان (بابر) وثبّت جذورها بيديه،

وتجشّم لها الملك (همايون) مشاق الرحلة الخطيرة إلى إيران، وأحكمها وقواها السلطان (أكبر) بفتوحه، وانتصاراته المتتالية، وتسخير البلاد — كانت شابة فتية، لم تبدُ فيها آثار الضعف والهرم، ولم يستطع السلطان (سليم شاه) خليفة الملك العصامي السلطان (شير شاه السوري) أن يقضي عليها.

وأخفقت كل المحاولات — في فترات مختلفة — للثورة وقلب نظام الحكم.

ثم إذا نجحت الجهود لخلع السلطان المغولي، كان من المتوقع جدًا، أن يستولي الراجبوت — الذين تولوا في عهد السلطان مناصب عالية خطيرة في الدولة، وكانت قوتهم العسكرية هي الوحيدة التي كان السلطان يثق بها ويعتمد عليها — على الحكم، فيكون ذلك ضربة قاصمة للسلطة المسلمة في هذه البلاد إلى الأبد.

ثم إن هذه التجربة لقيت إخفاقًا ذريعًا، من قبلُ فقد قامت — في عهد السلطان أكبر — حركة دينية منظمة كبيرة تحت قيادة الشيخ (بايزيد) باسم (الفرقة الروشنائية) وقد تقدم ذكر شيء من تاريخها وعقائدها — وحاربت هذه الفرقة جيوش الدولة المغولية الجرّارة، طوال أعوام وسنين، واستولت على (ممرّ خيبر) بعد أن جعلت مقرها (جبل سليمان) وشنّت غارات على المناطق المجاورة، وبعث السلطان أكبر لمقاومتها (راجه مان سنكه) و(راجه بيربل) وزين خان، وكلهم باؤوا بالخيبة والهزيمة، وقتل (بيربل) في معركة من المعارك، واستولت (الفرقة الروشنائية) بجيشها اللجب على (غزنين).

ولم يمكن التغلب على هذه الفتنة الداهية إلا في عهد السلطان (جهانكير) ثم قضى عليها قضاء باتًا في عهد السلطان (شاهجهان)،

ورغم كل ذلك لم تنتج هذه الثورة إلا فوضى واضطرابًا، واستسلمت – أخيرًا – للدولة المغولية، وبقي اسمها يذكر في التاريخ.

إن مثل هذه الإجراءات العسكرية باسم إصلاح الأوضاع الفاسدة، تستهدف للظنون السيئة، والشكوك المريبة عند أصحاب السلطة والحكومات؛ فيشمرون عن ساعد الجد – لظنهم أن الدين هو المعارض المناوئ لسلطتهم – لاستئصاله والقضاء عليه، ويتتبعون أتباعه والمتحمسين له، فيصفونهم ويبيدونهم إبادة كاملة.

ولعل الإمام السرهندي لأجل ذلك – بعد خروجه من معتقل (كواليار)، ومرافقة العسكر الإجبارية أربع أو خمس سنين، أشار على الوزير الشهير في بلاط السلطان جهانكير الأمير (مهابت خان) عندما قام بالثورة عام ١٠٣٥هـ على الدولة أن يكف عنها، ولا يثير الاضطراب، فكان دليلاً واضحًا على فراسته الإيمانية، والتوفيق الرباني الذي كان حليفه، إنه ما اختار – لإحداث تغيير جذري في الأوضاع – هذا الطريق المشبوه المحفوف بالأخطار، بل سلك طريق البناء بدل الهدم، والإيجاب بدل السلب، والإمالة بدل الإزالة، الطريق الذي كان بمأمن من كل خطر وضرر.

ولم يبق بين يدي الإمام إلا طريق واحد، وهو أن يبدأ باتصالات خاصة، مع أركان الدولة وأعيانها – الذين كانوا مسلمين، وكان الإمام السرهندي يعرف بذكائه الموهوب ومعرفته العميقة للنفوس – أنه لم يكن لهم في هذه المؤامرة والكيد للإسلام في عهد السلطان أكبر ناقة ولا جمل، بل كانوا يستنكرون كثيرًا من إجراءاته، ولكن السلطة لم تكن بأيديهم حتى يعملوا شيئًا، وكان عدد منهم يتصف بالحب

العميق للإسلام، والحمية الدينية، وعدد آخر كانوا معجبين بشيخ الإمام، ومرشده الشيخ الكبير عبد الباقي، ويحبونه، ويعتقدون في علو مكانته، وإن لم يكونوا من مريديه، والمبايعين على يديه، وكانوا يعرفون إخلاص الإمام السرهندي، وتحرقه للإسلام وتوجعه للدين، وزهده وعفافه.

وكان أشهر هؤلاء الأعيان، وأجلهم شأنًا النواب السيد مرتضى المعروف بالشيخ فريد (المتوفى سنة ١٠٢٥هـ)، وخان أعظم مرزا كوكه (المتوفى سنة ١٠٣٣هـ) وخان جهان اللودهي (المتوفى سنة ١٠٤٠هـ)، وصدر جهان البهانوي (المتوفى سنة ١٠٢٧هـ) والإله بيك جهانكير.

ما صدر من القلب نفذ إلى القلب:

وجّه الإمام السرهندي خطابه إلى أركان الدولة وكبار الأمراء والوزراء واستأنف المراسلة معهم، ونشر قطع قلبه ومُزع نفسه على صفحات الرسائل التي تمتاز — بين مجاميع الرسائل التي كتبت في أي لغة من لغات العالم، وفي تاريخ أي حركة دينية إصلاحية — ببلاغتها، ونصاعة أسلوبها، وروعة تأثيرها، وتدفق معانيها، وقد تجلى فيها تألم منشئها للوضع والواقع، وإخلاصه واستحواذ الفكرة عليه في أروع مظاهره.

ولا تزال — رغم مضي مئات السنين عليها — تحمل ذلك التأثير والروعة والجمال، يقدر بملاحظتها القارئ ما كان لها من فعل وتأثير في نفوس من وجهت إليهم، والواقع أن هذه الرسائل هي رسول الإمام السرهندي، وسفيره في الدعوة والتبليغ، وترجمانه الصحيح لقلبه المكلوم الجريح، وهي قطرات دموعه، وفلذات أكباده، وقد كانت لها مساهمة أساسية فعالة في إحداث ذلك الانقلاب العظيم الذي ظهر في

الدولة المغولية في القرن العاشر بالهند"[1].

إن هذه القطعة التي اقتبسناها من كتابه وإن كانت طويلة إلا أنها توضح منهج دعوته المعتدل وفكره الحصيف المساير لمقتضى الظروف وتتجلى من خلالها حياته الدعوية وجوانب عظمته الرائعة.

موقفه من الحركات الإسلامية المعاصرة:

كان الشيخ الندوي يرى أن الحركات الإسلامية والجماعات الدينية يجدر بها أن تكون بعيدة عن النشاطات السياسية وتعمل عملها في إيقاظ الوعي الإسلامي وتنشيط الصحوة الإسلامية، وتصب جهدها لتقريب الجيل المسلم إلى الشعور بما عليه من المسؤليات نحو الدين الإسلامي، وتحذر من الدخول في الحقل السياسي قبل تكوين الجو الصالح للتغيير والانقلاب.

وكانت له صلة وطيدة بحركة الإخوان المسلمين في مصر واتصل أكثر من مرة بأعضائها وعرف مناهجها عن كثب، فتحدث عن مؤسسها ورئيسها الأول الشيخ حسن البنا الشهيد يقول:

"أيقنت – بما سمعت من أعضاء الحركة وما شاهدت من آثار دعوته في الشعب المصري – أنه من الشخصيات البارزة العظيمة التى قيضها الله سبحانه لتأسيس حركة دعوية وإحداث ثورة إسلامية في البلاد، ورزقه مواهب صالحة لإدارة الحركة وقيادتها، فقد كان حازمًا بصيرًا، لين الجانب، كريم العريكة، متوقد الذهن، ذكي الفؤاد، حلو اللسان، فصيح الكلام، رحيمًا ودودًا، وكان كريم الشمائل، دمث الخلق، ترتاح لها النفوس وتنجذب إليها القلوب، وكنت كلما أنشد

---

[1] رجال الفكر والدعوة في الإسلام، ٣/٢٩٩ – ٣٠٤.

شعر إقبال الذي وصف فيه صفات الرجل المؤمن القرآني أتذكر الإمام حسن البنا وشخصيته العبقرية المثالية وأشعر كأن الشاعر ساح في آفاق الخيال وتخيل شخصيته بقوته الشاعرة واتصل بها فصاغها في قالب شعره وكأنه رآى حسن البنا بأم عينيه وهو يقول:

"الطموح إلى المجد، والبصيرة بالأمور، واللسان العذب، والنفس الكريمة المتدفقة بالحب، والعاطفة الصادقة إنما هي خير زاد لأمير الركب البشري"[١].

ويتحدث الشيخ الندوي عن حركة الإخوان فيكتب:

"وقد عرفت هذه البلاد وماجري في مختلف فتراتها من انقلاب ديني وثورة فكرية، وبحكم زيارتي للأقطار الإسلامية بما فيها مصر، وطول إقامتي فيها للأمور الدعوية عرفت أن لحركة الإخوان أثرًا كبيرًا في النفوس والعقول، وقدأحدثت ثورة إسلامية صالحة في الأقطار الإسلامية، وقامت بشيء كثير من التغيير في مناهج الفكر وطريقة العمل، فامتلأت النفوس بالعاطفة الإيمانية والغيرة الدينية والصدع بالحق والجهر بكلمة الإسلام، حتى أن الذين كانوا يستحيون من ذي قبل من التمسك بمبادئ الإسلام والعمل بالتعاليم الإسلامية وأدء الشعائر الدينية أصبحوا جاهرين بالحق، لا يخافون فيها لومة لائم، وقد تأثرت كثيرًا بما شاهدته من جرأة الإخوان المسلمين في سبيل الحق حتى انطلق لساني بكلمة الثناء على صفاتهم الإيمانية وقلت: الإخوان لا يحبهم إلا مؤمن ولا يبغضهم إلا منافق"[٢].

---

[١] حركة الإخوان المسلمين، ص: ٤٣.

[٢] حركة الإخوان المسلمين، ص: ٤٧.

ويتجلى موقفه الصريح من حركة الإخوان – مما كتبه الشيخ الندوي في مقدمته على كتاب" حركة الإخوان المسلمين " للدكتور رضوان على الندوي فيقول:

"والحق أن حر كة الإخوان لو توقفت قليلا وتورّعت عن الخوض في النشاطات السياسية وصبت جهودها في الحقل الدعوي والعمل الإصلاحي لشاهد العالم الإسلامي انقلابًا هائلاً وثورة إسلامية تحيي النفوس الميتة، وتنفخ فيها روح الحياة، وتعيد إليها الثقة المفقودة من جديد، وقد بلغني من المصادر الموثوق بها أن الشيخ حسن البنا الشهيد – رحمه الله – كان يعترف في آخر أيامه بخطأ الخوض في المجال السياسي حتى حدث ما قدر الله من محن ومصايب، وأزمات وشدائد، وكان يتمنى يا ليت الظروف تساعده والأحوال تواكبه وتمكن هو من الاشتغال بالشؤون الدعوية والتربوية وإعداد الجيل الجديد والجماهير المسلمة على مبادئ الصبر والاستقامة المطلوبة لقبول أي انقلاب ديني، ليقدر المسلمون على القيام بما عليهم من الواجبات نحو الدين الإسلامي على بصيرة، ومواجهة الفتن والأزمات بالصبر والصنمود"[1].

وكان الشيخ الندوي يقف من الجماعة الإسلامية التي أنشأها الشيخ المودودي موقفه من حركة الإخوان ويرى أن تَدَخُّل الجماعة الإسلامية في المجالات السياسية قبل تهيؤ الجو الصالح قد أضر بكثير من جهودها الدعوية المخلصة وعَرْقَل سيرها لتحويل الحالة السيئة إلى الحسنة، وقد تحدث عن الشيخ المودودي فكتب:

"وأعتقد أن الشيخ المودودي قداعترف في آخر أيامه بما صدر منه

---

[1] حركة الإخوان المسلمين: ٤٧/٤٨.

من استعجال الخوض في العمل السياسي قبل أوانه وأدرك أن كواهل أعضاء الحركة والمتحمسين لها تكاد تنوء بحمل ذلك العبء الثقيل وأنه لم تعد الأرض تصلح لغرس ما يريد أن يغرس فيها وللعمل الإصلاحي الذي يحلم به، وكأنه اعتراه حسن الظن والتعجل في مجاوزة تلك المرحلة الحاسمة الدقيقة والواقع أن الجماعة الإسلامية كانت – كما صرح بنفسه – في حاجة إلى تربية الذات وتكوين السيرة والخلق الفاضل من الصبر والمثابرة أكثر مما حظي بها في تاريخها الماضي"[1].

وأضاف قائلا:

"وقد كان يرجى مما وهبه الله سبحانه من الذكاء المفرط وقدرة الاستنتاج من تقلبات الأحوال أنه لو سنحت فرصة وبورك له في عمره وصحته وبقي زمام الجماعة في يده لأتى بتغييرات جذرية وتعديلات واسعة بعيدة الأثر في مناهج جماعته، ولأعار اهتمامه بتكوين المجتمع الإسلامي أكثر منه بإقامة دولة إسلامية، وركز جهوده على هذا الجانب المهم ولقد سعدت بلقائه في مدينة لاهور حينما سافرت إليه وذلك في آخر أسبوع من شهر يوليو سنة ١٩٧٨م وقلت له: إني أشعر بضرورة إنشاء حركة إسلامية في باكستان مثل "حركة رسالة الإنسانية" تهدف إلى إزالة ما تفشى في المجتمع من التدهور الخلقي وتزويده بالقيم الفاضلة النبيلة فأبدى إعجابه بالفكرة ودعا لي بالبركة وزودني بكلمات التشجيع"[2].

ويرى الشيخ الندوي أن جماعة التبليغ تحتاج أيضًا إلى بعض تعديلات جذرية وإصلاحات مهمة في منهاجها الدعوي، فأشار على

---

[1] پرانے چراغ (المصابيح المنطفئة): ٢/٢٦٦ – ٢٦٧/ للشيخ الندوي

[2] پرانے چراغ: ٢/٢٦٧– ٢٦٨.

المسؤولين عن الجماعة أن يأتوا بتغييرات ضرورية في المنهج، ولكن لما شعر الشيخ الندوي بأنهم لا يرتاحون إليه لبعض ما يشعرون به من المخاوف ولا يرضون به، فعكف على عمل الدعوة وبث الفكرة الإسلامية بأسلوب يراه يلائم الظروف، ومنهج يستسيغه الذوق المعاصر، وظل يوجه عناية الدعاة والعاملين في حقل الدعوة إلى اتخاذ الخطوات الملائمة لطبيعة العصر، ويسلك في ذلك مسلك الاعتراف بما قامت به الجماعة من دور رائع ملموس في إصلاح النفوس وتغيير البيئة، ثم يبين ما طرأ من القصور في المنهج والطريقة، ويرشد إلى ما تحتاج إليه من الأمور اللازمة لتنشيط عمل الدعوة.

وقد سنحت له في بريطانيا فرصة طيبة لزيارة بعض المدارس الدينية التي تتبع المنهج النظامي للتدريس وزيارة مركز جماعة التبليغ والجماعة الإسلامية، فأشاد بما لعب كل منها في إيقاظ الشعور الإسلامي وبث الوعي الديني في النفوس بجانب توجيه العناية إلى إصلاح منهج الدعوة وطريقة العمل الدعوي وإدخال بعض التعديلات الضرورية المفيدة للجماعات والمدارس.

يلقي فضيلة الشيخ محمد الرابع الحسني الندوي ضوءًا كاشفًا على منهجه النقدي الهادئ المتزن بأسلوب بليغ:

"زرنا في بريطانيا مدرسة دينية عظيمة كانت تتبع المدارس الدينية القديمة في الهند في منهاجها الدراسي وطريقة التدريس، لا تخرج عن التقليد والمحاكاة في شيء، ولا تراعي الظروف والبيئة وطبائع الناشئة الجديدة، فقام الشيخ هناك بخطاب قيم وأبرز أمام القائمين عليها ما للمدارس من المميزات المهمة والمسئوليات العظيمة، ونبههم على

تضحياتهم وأوصافهم التي يتصفون بها، وأكد عليهم أن يضعوا نصب أعينهم مقتضيات الدعوة الإسلامية التي لابد من القيام بها في بيئة البلاد، ولايتغافلوا عنها ولو للحظة واحدة. وذلك لأن العامل في حقل الدعوة يلزمه أن يكون مطلعًا على البيئة وطبائع المخاطبين وأحوالهم ولغتهم التي ينطقون بها حتى يقوم بعمل الدعوة فيما بينهم على أحسن طريق، ويزيل عما طرأ على الجيل الجديد من الشكوك والشبهات تجاه الدعوة الإسلامية، فلابد من وضع المقررات الدراسية حسب طبائعهم وعقولهم، ولا بد من التعديل في النظام التعليمي السائد وفق ما تقتضيه الظروف، وإذا سارت مدرستكم هذه على غرار المدارس النظامية وبقيت مقلدة لها في كل شأن من شؤونها، لم يكن لها فضل على مثلها من المدارس المتواجدة في الهند.

وقد زار سماحة الشيخ الندوي مركزا إسلاميا يعمل في حقل الدعوة والإرشاد، وله جهود ملموسة في نشر الفكر الإسلامي، وكان لهذا المركز الإسلامي منهج خاص للدعوة وطابع خاص للفكر إلا أنه كان ينقصه الاعتداد بشخصيته والاعتزاز بما يقوم به في مجال الدعوة والارشاد من الجهود، فأشاد الشيخ الندوي بجهوده الدعوية بجانب لفت الأنظار إلى أن الإصرار على منهج معين لخدمة الدين ليحدث خللاً، ويفقد تأثيره على النفوس، بل لابد من الانطلاق الفكري ورحابة الصدر في القيام بفريضة الدعوة، أينما يقوم أفراد الأمة بالعمل الدعوي والفكر – بأي شكل كان – بإخلاص النية لنقدّره وننوه به، ونستفيد منه ما أمكن.

وزار الشيخ الندوي مركزا آخر يقوم بالعمل الإصلاحي فيما بين العامة، وهو بمثابة المركز الأساسي للدعوة في تلك المنطقة، فاستلفت

الشيخ الندوي انتباهات القائمين عليه منوها بخدماتهم في مجال الدين والعلم إلى أن أهم ما تفتقر إليه ناشئة البيئة الغربية هو تثقيفها بالثقافة الإسلامية وتزويدها بالفكرة الإسلامية، فيجب علينا تركيز الجهود على إنشاء حركة التعليم المتسمة بالميزات الإسلامية الهادفة إلى الأغراض النبيلة والمقاصد الجليلة، ولو لم نراع ذلك، وبقينا خاضعين للنظام التعليمي السائد في كل طور من أطواره، ورأينا فيه غنى وكفاية ليعود ذلك بخسائر فادحة. ولا غرابة حينئذ إذا رأينا والداً يبيت ليله أمام ربه خاشعا، وعيناه تذرفان بالدموع بما اقترفه من المعاصي بينما نرى ولده يتأثر بما حوله من البيئة المناوئة للإسلام ويحمل الأفكار الملحدة التي لا تبقي ولا تذر، ليس له من الإسلام في شيء، قلبه يخلو من العاطفة والحب، وعقله يحرم العقائد والثوابت الإسلامية، فيتبع غير سبيل أبيه، يكون فكره معوجا، وذهنه منحرفا غير سليم، وذلك لأن أذهان الجيل الجديد تنعكس فيها – طبعًا – آثار ما حوله من البيئات العلمية والفكرية"[1].

موقف الشيخ الندوي من السياسة:

وكان الشيخ الندوي لا يعتبر السياسة شجرة يمنع من التقرب إليها، ولايعتبرها محظورة في الشريعة إلا أنه يرى أن السياسة في الوضع الراهن لا تجدي نفعًا في إصلاح المجتمع وتغيير الظروف، ويري أن الخوض في الأنشطة السياسية لا يثمر ولا يغني من جوع، فكلما مست الحاجة إلى هذا الجانب، لم يقصر في إرشاد القادة المسلمين في مجال السياسة إلى الإصلاح وإزالة الفساد، وفي عهد رئيسة وزراء الهند انديرا غاندي لما

---

[1] الشيخ السيد أبو الحسن على الحسني الندوي شخصية صنعت التاريخ: ٢٧٩/ ٢٨٠.

اشتد الخناق على المواطنين في الهند عامة وعلى المسلمين خاصة حتى تسرب إلى قلوبهم الخور وفتور العزيمة ورضوا بالخضوع الكامل لحزب المؤتمر الوطني، قام الشيخ الندوي يشعل الحماس والغيرة في قلوبهم ويشكل الكوادر من رجال السياسة المسلمين لملأ الفراغ السياسي، وتشكيل جبهة الاتحاد السياسي لصلاح الأمة المسلمة في الهند، فأنشأ حركة سياسية باسم "مسلم مجلس" برياسة الطبيب عبد الجليل فريدي، وقد أثبت المجلس جدارته وأهميته في الحقل السياسي حيث عقد تحالفا سياسيا مع الأحزاب السياسية الأخرى، مما أسفر عن هزيمة المؤتمر الوطني، وشعر المسلمون حينذاك بقيمتهم السياسية، ولكن الشيخ الندوي عرف باتصالاتهم مع رجال السياسة وإلمامهم بأمورها أن أي حزب من الأحزاب السياسية المسلمة لا تظفر بالأغلبية وحدها وربما يأتي بنتائج وخيمة من تجميع صفوف الأغلبية الهندوسية وإثارة العصبية الدينية، وإن اتحاد الأغلبية — لا شك — يشكل خطرًا على الأقلية المسلمة.

كان الشيخ يرى من الأجدر والأنفع للأمة المسلمة الهندية أن يكون في كل من الأحزاب السياسية ممثلون سياسيون يعملون لصالح المسلمين بإخلاص وجدية، ويقومون بإرشاد قادة الأحزاب السياسية كلما مست الحاجة إليه، إلا أنه كان يكره لهولاء الممثلين انضمامهم إلى حزب من الأحزاب انضماما يقطع حبلهم عن غيره ويحدث في الأوساط السياسية العداوة والشحناء.

وكان الشيخ الندوي يرى أن تكون وظيفة التوجيه في الحقل السياسي بحكمة بحيث لا يستشعرها أحد، كما يجب التزام شيمة العطاء والجود التى هي من الخلق الإسلامي، ويجب كذلك ترشيد القادة

والزعماء إلى ما يعزز كيان البلاد ويصبّ في صالح الوطن والإنسانية، والسعي لإثبات جدارتهم في المجال السياسي لكي يشعر قادة الأحزاب السياسية بمسؤوليتهم نحو حفاظ المسلمين وصيانتهم والتقدم بهم في مختلف مجالات الحياة، ويرى ذلك لزاما عليهم في سلامة البلاد وبقائها.

محاولات إقامة الدين مقرونة دائمًا بمراعاة الحكمة وفقه الدين:

أفاض الشيخ الندوي في الحديث عن طريق إقامة الدين الإسلامي في المجتمع والكون، وبين موقفه بصراحة: لا بد في محاولة إقامة الدين من مراعاة الفرق بين الوسائل والغايات، إذ إقامة الدين مقصود بالذات وإقامة الحكومة الإسلامية ليست مقصودة بذاتها، وإنما هي وسيلة هامة للتوصل إلى تلك الغاية النبيلة، ويقتضي ذلك إصلاح القلوب والأفكار بدلاً من الأفراد والجماعات، يقول الشيخ الندوي:

"لكن هذا الركن — أعنى محاولة تمكين الإسلام وجعله قوة حاكمة، لها الأمر والنهي — من أركان "إقامة الدين" ليس كقالب حديدي لا نعومة فيه ولا مرونة، ولا يمكنه أن يتوسع في أي حال من الأحوال، فالذين نثق بإخلاصهم، ورسوخهم في العلم، وتفقهم في الدين، وتشهد لهم بذلك صفحات ناصعة في التاريخ، ودلائل وشواهد لامعة في صفحات الكون، ونعلم أنهم لم يكونوا من أهل "الرخصة" بل كانوا من رجال "العزيمة" فلابد أن نعترف بأنهم لم يتخذوا من وسائل هذا العمل العظيم ومناهج يعيشونها، ولم يألوا جهدًا فيما كانوا يستطيعونه، لأن المقصود هو النتيجة لا الوسيلة، والبناء لا الهدم، والإيجاب لا السلب، وكيف يسوغ لعاقل أن يقول: أن هؤلاء المصلحين المجاهدين كان واجبًا عليهم على كل حال أن يضعوا كل جهودهم في هدم الأبنية — التي فسدت بعض أجزائها، أو

أسيء استخدامها – ويستهلكوا في ذلك إمكانياتهم وفرصة عمرهم، ولا يدعوها حتى يحولوها أنقاضًا، سواءًا وجدوا فرصة إعادة بنائها أو لم يجدوها، فإن وقفوا من الحكومات الإسلامية المحكمة التي كان حكامها والمسئولون عنها يتلفظون بكلمة الإسلام ويعملون بكثير من فرائضه وشعائره، ويملكون وسائل وإمكانيات لا يملكها غيرهم، موقف الإصلاح والنصح، والتفهيم والإيضاح، دون المعارضة الكلية، واستخدموا مبدأ "الإمالة" دون "الإزالة" لا يجوز لنا أن نرميهم بالإهمال الكلي في القيام بهذه الشعبة من شعب "إقامة الدين" وباقتراف "التعاون على الإثم والعدوان".

وكذلك لا يجوز لنا أن نتهمهم بالتقصير في أداء هذا الواجب، لو ركزوا عنايتهم، وما أوتوا من المواهب العلمية والخطابية والكتابية، وما يتمتعون به من المؤهلات الروحانية والقوة الإيمانية، على تحويل اتجاه المجتمع من الجاهلية إلى الإسلام، ومن عبادة النفس والمادة إلى عبادة الله وحده، ومن العصيان والإباء والطغيان، إلى الطاعة والانقياد، حيث أن المجتمع الإسلامي الفاضل الأصيل هو التربة المعبدة الصلبة التي تتحمل أثقل عبء، وأضخم بناء، وتقبل القيادة الصالحة، وبجانب ذلك ظلوا على اتصال دائم بمركز القيادة والإدارة، وبلاط الحكومة، وقدموا إلى رجال الحكومة قوانين شرعية مدونة، لكي يأخذوا بها في النظام المالي والقضائي والإداري، وسخروا الحكام المعاصرين بقوة أخلاقهم وإيمانهم وروحانيتهم وإخلاصهم ونصحهم، فمنعوهم أحيانًا كثيرة عن الخطوات التي تلحق الضرر بالإسلام والمسلمين، وأخضعوهم بهذه القوة الغلابة لإجراء القوانين الشرعية والحدود الإلهية، ووقفوا بهم في وجه القوى المحاربة للإسلام، فكانوا سببًا مباشرًا في توسيع حدود الدولة

الإسلامية، والجهاد في سبيل الله، ووفروا للحكومة رجالاً أمناء أوفياء أكفاء ربوهم في أحضانهم أعوامًا طوالاً، وربما كانوا واسطة في تحول زمام الحكومة والقيادة من الملحدين إلى المتدينين، من المحاربين للإسلام إلى المحافظين على الإسلام، من الماحين للدين إلى الحامين للدين، فلابد أن نعترف لهم بالفضل، ونعتبرهم حاملي لواء السعي في سبيل إقامة الدين، وجنود الإصلاح والإحياء والتجديد الأوفياء، ولا يحق لنا أن نسقطهم من الحساب، ونخرجهم من القائمة، ونرميهم بالتقصير في المسئولية، بمجرد أنهم لم ينجحوا في تأسيس حكومة إلهية مثالية".

تغيير الأفكار لا تغيير الأجسام

توصل الشيخ الندوي بدراسته المتقنة لحياة الرسول الأعظم صلى الله عليه وسلم وصحابته الغر الميامين ودراسة التاريخ الإسلامي إلى نتيجة أن نشر المبادئ والثوابت الإسلامية أمر لا محيص عنه، كما أنه يجب على المسلمين إبلاغ رسالة الخالق إلى خلقه، ومحاولة تغيير الأفكار والأذهان إلى ما هو أحسن وأصلح، إذ الدعوة الإسلامية لا تهدف إلى الإطاحة بعرش أحد، وإحلال آخر مكانه، وإنما مقصود الدعوة الإسلامية هو زرع المفاهيم الدينية وحب الثقافة الإسلامية في الأفكار وصوغها في بوتقة الإيمان واليقين، ويفتقر ذلك إلى ركائز متينة للدعوة نبعت من منبع القرآن الكريم ومنهجه الأصيل واستنارت بأسوة محمد صلى الله عليه وسلم وخلقه العظيم.

أصول الدعوة عند الشيخ الندوي:

وكان الشيخ الندوي يعبر عما يجول بخاطره من حكم الدعوة بأسلوبه المؤثر المقنع، وكان مما يوصي الداعي الذي أراد النجاح في حقل

الدعوة: لابد أن يدخل من أبواب مفتوحة دون مغلقة، لأنه إذا ابتغى وراء ذلك فليس له إلا أن يكسرها ويأتي إليه قسرًا من غير إذن صاحبها، وذلك لا محالة يؤدي إلى التنافر والتباغض، ويعتبر الداعيَ بمثابة عدو له، فلا يهش إليه، وإذا رأى ما يعامله الداعي لجأ إلى الفرار والتخلص منه، ولكن الداعي إذا راعى آداب اللقاء – وذلك أن لا يدخله حتى يستأنس به – وأكرمه حق الإكرام، ملكه قلبه، فيفتح له أبوابه كلها، فلا عتاب ولاملامة على الضيف؛ بل يكرم عند نزوله.

ويحث القرآن الكريم رجال الدعوة على أن يختاروا الحكمة في دعوتهم، وذلك مما أرشد إليه نبينا المصطفى محمدا صلى الله عليه وسلم في الآية فقال: "قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ".(آل عمران: ٦٤)

وعبر عن ذلك القرآن الكريم بكلمة "سواء" وأكد على اتخاذ الحكمة في توجيه الدعوة إلى الله مرارًا وتكرارًا، وإن الرسول صلى الله عليه وسلم أفضل نموذج له.

وإن الداعي إذا أخذ في الحديث الذي يألفه المدعو ويستأنس به، فإنه يملك عليه مشاعره وأحاسيسه، ويترك كلامه أثرًا في نفسه، ويمهد ذلك الأسلوب الحكيم المؤاسي السبيل لقبول دعوته، وهذا هو الباب المفتوح الذي يستطيع به الداعي أن يفتح منافذ القلوب العاصية المتحجرة، ولابد له أن يكون عالمًا بتاريخ الإنسانية، مطلعًا على طبائع المدعوين ونفسيتهم، ليتكمن من عرض الدعوة عليهم مراعيًا طبيعتهم.

وقد راعى الشيخ الندوي في توجيه القادة والزعماء الأسلوب

الحكيم المتدفق بالروح الإسلامية، خاطبهم بأسلوب صريح غير مجامل إلا أنه لم يقصد به النقد القاسي بحيث لم يعتبره المدعو مخالفًا له أو عدوًا في الفكر والعقيدة؛ بل اعتبره صديقًا مؤاسيًا له، ناصحًا مخلصًا في دعوته، يتجنب فيه جهد المستطاع الإساءة إلى عواطفه، لكي يبقى باب النصح والتوجيه مفتوحا، وقد صرح كل نبي من الأنبياء في دعوته بالنصح حيث جاء: "وأنا لكم ناصح أمين".

لأن من طبيعة المدعو أنه إذا علم أن الداعي ليس مخلصًا في دعوته، وإنما يحثه عليها غرضه الدنيوي، انقلب مخالفًا له في دعوته تلك، ويفقد به الداعي تأثير كلامه وسحره على النفوس.

يحتاج الداعي لتقريب الناس إلى دعوته، إلى مراعاة طبائع الناس، ويلزم له أن يعرض أمامهم ما تستسيغه قلوبهم وتألفه نفوسهم، وتعترف به أذواقهم من المفاهيم السائدة والمعاني المسلمة لديهم، ثم يحتاج إلى جعل أسلوب كلامهم أسلوبًا لينًا هادئاً رزينًا مفعمًا بالحب الصادق، متدفقًا بروح الإخلاص، فينفذ إلى القلوب، ويملك على المشاعر والأحاسيس، فتتأثر به النفوس، فإن أسلوب دعوة الشيخ الندوي كان يمتاز بالحكمة والموعظة الحسنة وتوجيه الدعوة بالمنهج الذي هو أفضل وأصلح، وأكد عليه الشيخ الندوي في كتاباته وخطبه، وعلى أهمية مراعاة الحكمة في توجيه الدعوة، ولاشك أن ذلك من آثار المدرسة النبوية التي تنعكس في طبيعته لأنه عاش وتربى في ظلال السيرة النبوية الوارفة.

فقد درس الشيخ الندوي سيرة النبي الأعظم وسبر أغوارها وأنجادها؛ بل لا نبالغ إذا قلنا أنه رضع بلبانها، ولما عهدت إليه مسئولية التدريس في دار العلوم لندوة العلماء ازداد عكوفه على مطالعة كتب

السيرة النبوية، يعيش في أجوائها، يستمتع بجمالها، ويستروح رياها، ولا يتحدث إلا عنها، وكان للشيخ الندوي شغف بدراسة الحديث النبوي الشريف كما كان ولوعًا بالسيرة النبوية، وكان له أسلوب خاص ينفرد به عن غيره من أساتذة الجامعات والمدارس الإسلامية، فقد كان يسهب الكلام على الأحاديث التي كانت تتعلق بالمجتمع الإنساني ويفيض في الشرح والتحليل، لا يكتفي بالسرد المطلق كعادة المدرسين، وإنما يشرح شرحًا وافيًا يقتضيه المقام ثم يطبق ما جاء فيها على الواقع المعاش، نجح الشيخ الندوي في دراسة السيرة النبوية والأحاديث الشريفة في أخذ المفاهيم القيمة واستنباط الأصول الدعوية التي دعا إليها طول حياته، واستفاد منها في حياته الدعوية.

أنظر على سبيل المثال ما كتبه الشيخ الندوي في السيرة النبوية خلال سرد قصة سعد بن عبادة حينما صدرت منه جملة " اليوم يوم الملحمة" أفاض الشيخ الندوي في بيان الحكمة النبوية، واستنبط من المنهج النبوي للدعوة أصولا رائعة تنير للعاملين في حقلها السبل، وتبدد الظلمات، وكل ذلك في أسلوب بليغ مؤثر يقول:

"ولما مر سعد بن عبادة بأبي سفيان في كتيبة الأنصار، قال له: اليوم يوم الملحمة، اليوم تستحل الحرمة، اليوم أذل الله قريشًا، فلما حاذاه رسول الله صلى الله عليه وسلم في كتيبته شكا إليه ذاك أبو سفيان، قال: يا رسول الله! ألم تسمع ما قال سعد؟ قال: وما قال؟ قال: كذا وكذا.

فاستنكر رسول الله صلى الله عليه وسلم مقالة سعد، وقال: "بل اليوم يوم المرحمة، اليوم يعز الله قريشًا، ويعظم الله الكعبة"، وأرسل

إلى سعد، فنزع منه اللواء، ودفعه إلى قيس ابنه، ورأى أن اللواء لم يخرج عن سعد إذ صار إلى ابنه.

ولم يزد الرسول الملهم أن أبدل حرفًا بحرف، وأبًا بابن، فعالج نفس أبي سفيان المكلومة — وكان في حاجة إلى تأليف القلب — من غير أن يسيء إلى سعد، صاحب سوابق في الإسلام[١].

منهج القرآن الدعوي المعجز في ضوء دعوة الأنبياء والمرسلين

ألقى الشيخ الندوي حول هذا الموضوع محاضرات قيمة نشرت فيما بعد في صورة كتاب مستقل تلقته الأيدي بالقبول والاستحسان، تحدث فيه عن المنهج القرآني الدعوي في ضوء منهج الدعوة القرآني المعجز بشيء من الإسهاب والتفصيل، وأتى بكلام لطيف مستدلا بالآيات القرآنية التى وردت في سياق دعوة الأنبياء أمتهم إلى عقيدة التوحيد.

تأمل كيف كان أسلوب إبراهيم الخليل عليه السلام في دعوة أبيه الذي تربى في حجره وعاش في أكناف حنانه وشفقته، يضفي بيان القرآن الكريم على ذلك بكلامه المعجز البليغ ويصور منهج الخليل الدعوي تصويرا صادقا، يقول القرآن الكريم:

"وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِبْرَاهِيمَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَبِيًّا إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِي عَنْكَ شَيْئًا يَا أَبَتِ إِنِّي قَدْ جَاءَنِي مِنَ الْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَاتَّبِعْنِي أَهْدِكَ صِرَاطًا سَوِيًّا يَا أَبَتِ لَا تَعْبُدِ الشَّيْطَانَ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلرَّحْمَنِ عَصِيًّا يَا أَبَتِ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِنَ الرَّحْمَنِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَانِ وَلِيًّا" [مريم: ٤١ — ٤٥].

يفسر الشيخ الندوي أسلوب إبراهيم الخليل بقلمه السيال

---

[١] السيرة النبوية، ص: ٣٣٨.

البليغ، فيقول:

"إذا تدبرنا في هذه الآيات وما فيها من النكت اللطيفة والحكم الدقيقة تجلت لنا عدة أمور تنير لنا المنهج القرآني للدعوة والإرشاد الذي سلكه الأنبياء والمرسلون:

إثارة للحنان الأبوي:

"أولا تتأملون في قوله: "ياأبت" لهجة فيها الرقة وفيها البر، وفيها التواضع، وهذا يرجع إلى الذوق السليم، كذلك كان الذين تذوقوا القرآن، وتشربوا روحه، إذا قرؤوا آيات الرحمة ترق قلوبهم وتلين أصواتهم، فالولد إذا خاطب أباه بقوله "ياأبت" أثار فيه الحنان الأبوي، وكان يمكن لابراهيم أن يصيح فيقول: يا سيدي، أو يقول: ياشيخ الكهان، لأنه كان كاهنا، ولكنه يقول: "ياأبت" تعمد إبرايهم هذه الكلمة ليصل بها إلى أعماق قلبه، ويثير فيه الحنان، فالولد مهما بلغ الغضب من والده، إذا ناداه بقوله: "ياأبت" يا والدي الكريم رق وتهيأ لسماع كلامه، إن إبراهيم أثار فيه الحنان قبل أن يثير فيه الإيمان، والحنان يسبق الإيمان أولا، فقد يكون الوالد حنونا، ولا يكون مؤمنا فهذا الحنان هو الذي يستطيع الإنسان أن يعتمد عليه، ولا ينبغي للداعي الحكيم أن يغفل هذا الجانب، وإذا أغفل هذا الجانب فإنه أساء إلى نفسه، وأساء إلى دعوته، إذا كان غليظا: ولو كنت فظا غليظ القلب لانفصوا من حولك" فالرسول عليه الصلوة والسلام راعى هذا الجانب مع عمه أبي طالب، فخاطبه في مواضع دقيقة محرجة بقوله: "يا عم" فقال حين رأى حيرته في أمر الدعوة إلى الإسلام وارتباكه فيها وتخوفه من معرة قريش، " يا عم لو وضعوا الشمس في يميني والقمر في يساري على أن أترك هذا الأمر،

حتى يظهره الله أو أهلك دونه ما تركته".

وكانت نتيجة هذه الرقة مع الصرامة، وإثارة العاطفة الإنسانية في أبي طالب – مع إيثاره لدين آبائه – أن قال له، وقد خاطبه بقوله: يا ابن أخي، كما خاطبه رسول الله صلى الله عليه وسلم بقوله: "يا عم": "اذهب يا ابن أخي فقل ما أحببت، فو الله ما أسلمك لشيء أبدا"[١].

إصلاح المجتمع الإنساني

إن محور الدعوة عند الشيخ الندوي ينحصر على إصلاح المجتمع البشري وإزالة ما طرأ عليه من عوامل الفساد والضرر وتغيير البيئة الفاسدة المضطربة إلى بيئة صالحة آمنة، وتنصب جهوده على مجال تزكية القلوب والضمير الإنساني، وذلك هو ما عرفه من منهج دعوة الأنبياء والمرسلين، ودعا إليه طول حياته من خلال ما كتب من المقالات وألقى من المحاضرات، أن الداعي لابد أن يكون لينًا في كلامه، هادئًا في عرض دعوته ناصحًا للمدعو، مراعيًا لطبيعته ونفسيته فتكون دعوته مؤثرة على نفسه. يقول الشيخ الندوي مستدلا بدعوة سيدنا موسى عليه السلام لفرعون حينما كلفه الله سبحانه وأمره بالقول اللين يقول:

"بعد ذلك لا يمكن أن يتعلل إنسان ويقول: إني أغلظت لفلان القول لأنه كان كذا وكذا، لأنه ما يمكن لإنسان أن يبلغ إلى هذا المدى من الوقاحة ومن الصلف ومن الكبرياء ومن التحدي لقدرة الله تبارك وتعالى وجبروته وملكه، فيقول: "أنا ربكم الأعلى".

إن أساس الدعوة إبلاغ الفكرالصحيح إلى المخاطب بطريقة موحية وأسلوب ناصح يلائم طبيعته، ويبذل جهد طاقته ليصل إلى قلبه، وإذا

---

[١] سيرة ابن هشام: ١/٢٦٥–٢٦٦.

كان المخاطب من الأمراء ورجال السلطة فيلزم عليه أن يكون اهتمامه أكثر ومنهج دعوته أبلغ وأنصح، ويركز عنايته على أن يتعظوا بنصيحته ويقبلوا دعوته.

وقد راعى الشيخ الندوي أساليب الدعوة في كل مناسبة مهما كانت الظروف، لم يتنازل عنها قيد شعرة، فخاطب العامة والخاصة وقادة الحركات الإسلامية ورؤساء الجامعات ورجال السلطة والأمراء والوزراء، خاطبهم بما يناسب طبيعتهم وأمرهم بما يلائم منصبهم، ولم يتجاوز في خطابه لهم ما يلزمه من الاعتدال والوسطية، فوقع كلامه موقعا حسنا.

إنه أرشد الملوك والأمراء والقادة والرؤساء إلى فكر سليم ووعي ديني، وبذل جهده في توجيه أذهانهم إلى وجدان ديني بلقاءاته ورسائله وحواره، وتجلي أثره في بيئات البلدان المختلفة.

الفرق بين العقيدة والعمل ومنهج دعوته:

إذا قمنا باستعراض منهج الشيخ الندوي في دعوته لرجال السياسة وأصحاب الحكم وجدناه قائما على الحكمة المفعمة بالجرأة، وعلى أسلوب الرفق المجرد عن المجاملة، وعلى التعبير اللطيف البعيد عن شوائب الإيهام واسترضاء النفوس، فقد كان صريحا في شرح العقيدة والثوابت الإيمانية، شديد الإنكار على النظريات اللادينية والفلسفات الغير الإسلامية، لأنه كان يرى العقائد المنحرفة والأفكار المضلة مفسدة للعقول والقلوب، فلا يثنيه في إرادة نقده شيء من غضب الناس عليه، ولا يمنعه لومة لائم، فهو يوجه انتقادات لاذعة دون تردد ولا محاباة، وإنما يرى علاج المرض لازما عليه، فيرشد إلى ما ينطوي عليه الفكر

الفاسد من الأضرار الخطيرة دون مهابة ولا خوف.

ويتجلى ذلك بكل وضوح في استنكاره الشديد على مصطفى كمال أتا ترك ونقده على مواقفه السلبية نقدا لاذعا، وليس ذلك إلا لأنه كان يرى مواقفه الإصلاحية في تركيا منحرفة ضالة ومضللة للشعب التركي والعالم الإسلامي، إقرأ على سبيل المثال ما كتبه الشيخ الندوي في كتابه الشهير " الصراع بين الفكرة الإسلامية والفكرة الغربية في الأقطار الإسلامية" ناقدا على الفلسفات الغربية، وعلى موقف مصطفى كمال وأمثاله من زعماء العالم الإسلامي وساسته:

"وكان يتسلى(مصطفى كمال باشا) بالخمر ويشغل نفسه بها فإنه لا يجد ما يسلي به نفسه وروحه كالإيمان بالله واليوم الآخر، لأنه كان لا يؤمن بهما، وكان لا يشعر بفرح وسرور حين يعتدي على الآخر ويسطو به، وكانت هذه طبيعته التي فطر عليها، وقد تجلت هذه الطبيعة في تصرفاته، ولم يكن يعترف بعواطف غيره، لأنه لا يرى أحدا يوازيه، وكان مفطورا على حب التغلب على الآخرين وإخضاعهم لإرادته وهواه، وكان يحب أن يبقى على القمة دائما"[1].

وأضاف قائلا: "قد اقتنع بأن كفاحه يجب أن يوجه إلى الدين، فإنه الأكبر، وكان يعتقد من صغره أنه لاحاجة إلى الله، إنه اسم غامض خداع مجرد عن كل حقيقة، وكان لا يؤمن إلا بالمشاهد المحسوس، وكان يرى أن الإسلام إنما ظل عاملا هداما في الماضي، وأنه قد جنى على تركيا جناية كبيرة، وألحق بها خسائر فادحة"[2].

---

[1] الصراع بين الفكرة الإسلامية والفكرة الغربية في الأقطار الإسلامية: ٥٣.

[2] الصراع بين الفكرة الإسلامية والفكرة الغربية: ٥٤.

ولما تربع على عرش تركيا قام بتحويل وجهة تركيا إلى اللادينية، وألغى نظام الخلافة، وحطم الأساس الديني، وألقى الشيخ الندوي الضوء على مواقفه السلبية بإيجاز فيقول:

"إنه انتصر على الشعب حقا، فقد جعل الدولة علمانية، ليس الإسلام دينها الرسمي، أحدث الفصل بين الدين والسياسة، وقرر أن الدين قضية شخصية، لكل فرد أن يختار له دينا ويدين به، من غير أن يكون له دخل في السياسة والإدارة، وألغى المحاكم الشرعية وقانون الشريعة الإسلامية، وقرر العمل بالقانون المدني السويسري، والقانون الجنائي الإيطالي، والقانون التجاري الألماني، وأدخل الأحوال الشخصية في القانون المدني الأوربي، ومنع التعليمي الديني، وعطل مراكزه، ومنع الحجاب، وقرر السفور والتعليم المختلط، وألغى الحروف العربية وأبدلها بالحروف اللاتينية ومنع الأذان بالعربية وجعله بالتركية، وغير اللباس، وألزم لبس القبعة، وبعبارة موجزة: "قد حطم الأساس الديني وغير وجهة نظر الشعب التركي والحكومة التركية[1]".

وانتقد الشيخ الندوي نزعة القومية العربية لكونها مخالفة لروح القرآن وروح الشريعة الإسلامية فوخز بخطبه المدوية المجلجلة ضمير زعماء القومية العربية، وعبيد النزعة العصبية وأسراء التقاليد الجاهلية، فضح سرائرهم، وحطم أصنام الجاهلية التى نحتوها بأيديهم، والأفكار الباطلة التي نسجتها أهواؤهم، أفرغ جهده كله على إبطال هذه المعتقدات الباطلة والنزعات الجاهلية بكل قوة وأسلوب ثائر كأنه أسد الشرى، فقلمه – حين يكتب ساخطا على القومية وناقما عليها –

---

[1] الصراع بين الفكرة الإسلامية والفكرة الغربية: ٥٩.

ينقلب صارما مسلولا على أعناق الأعداء، ويتحول هو بركانا يرسل شواظا من النيران، فصدر منه ما لا يلائم طبيعته من القول الشديد والنقد اللاذع، وإنما ذلك دفاعا عن حوزة الإسلام، وأنفة لروح الشريعة، وغيرة على الدين، لأنه سمع قول النبي صلى الله عليه وسلم: من تعزى بعزاء الجاهلية فأعضوه بهن أبيه ولا تكنوا".

يرى الشيخ الندوي العصبية بكل أشكالها وأنواعها مما يوهي الوحدة الإسلامية ويضعف الأخوة الإيمانية ورابطتها الآفاقية، وكان يقول: "لا علاقة للعصبية القومية بالدين الإسلامي وطبيعته الآفاقية".

ولما برز الرئيس جمال عبد الناصر في ساحة مصر كزعيم للقومية العربية ونفخ في العرب روح العصبية حتى ظن العالم العربي بأنه " نبي القومية العربية" وأشادت به وبمكانته الصحف العربية وتغنت بأمجاده ومآثره نحو التقدم بالوطن والارتقاء بالأمة العربية، نهض الشيخ الندوي في تلك الفترة الرهيبة ثائرا على هذه النزعة الجاهلية، ونصب لجماعات القومية وزعمائها يفند الدعاوي الباطلة والمزاعم السفيهة بدليل من القرآن ونور من الحق، وينادي بشهاب من اليقين الثابت على آفاقية الإسلام، وأثبت أن الرئيس الناصر يريد أن يوقع العالم العربي في هاوية سحيقة من اللادينية والإلحاد والمادية حيث لا تقوم بعدها قائمة، وصب لمكافحة هذا الخطر جهوده كلها، واستخدم لسد هذه الفتنة التي اكتسحت العالم العربي والإسلامي كل ما يملكه من قوة البيان والقلم السيال والعاطفة الإيمانية القوية ما بعث الناس على الحيرة والاستعجاب، وذلك لكونه وطيد الصلة بالعالم العربي، قوي الاعتراف بفضله شديد الحب له، كثير الهيام به، وكان أكثر الناس

متابعة لأحواله وظروفه.

ويحق له أن يثور ثائره إذا ولغ أحد في عرضه، واستباح حرمته، وبحبه الشديد وكثرة كلامه عن أحوال العالم الإسلامي أصبح عرضة لسهام الناقدين الذين يتبرمون به إذا أراد ترشيد العالم الإسلامي ويضيقون به ذرعا إذا تحدث عن أحوال العالم الإسلامي فضلا عن توجيه الملامة إليه والانتقادات القاسية عليه، كتب الشيخ الندوي ردًّا على القائلين به مقالا يتدفق بحبه الشديد للعالم العربي والإسلامي ويبين صلته الوطيدة، ويفيض باعتراف أمجاد العرب ومكانتهم السامية في العالم: يقول:

"لست غريبًا في أي قطر من أقطار العالم العربي، ولا معرفتي بأحواله وأوضاعه مبنية على المصادر الثانوية؛ بل اختلفت إليه مرارا وتكرارا، قد عرفته عن كثب، وسبرت أغواره وأنجاده، وكأني عصفور من هذه الحديقة الغنية الفيحاء تحلقت في أجوائها، وتمتعت بأجزائها، وتغنيت بكل غصن من أغصانها، ولم أبدأ فيما بدأت به من عملية الانتقاد بدافع مما جرى ويجري في الأقطار العربية والإسلامية من تقلبات غير إسلامية وإصلاحات غير مرضية فحسب، ولم يبعثني على توجيه النقد على زعماء العالم العربي وساسته مجرد الهزيمة الفاحشة للعرب في المعركة التي جرت له مع إسرائيل المحتلة، وشرح أسباب الهزيمة وخلفياته، ولا تصديت للنقد فجأة بل عشت في العالم العربي ودرست تاريخه دراسة متأنية وخبرت أوضاعه المعاصرة عن كثب دون طريق غير مباشر، وأرى نفسي — بصفتي مسلمًا ودارسًا للحضارة العربية والإسلامية — جزءًا من الأسرة الإسلامية العظيمة التي امتدت من

مراكش إلى بغداد، أقاسم أفراحها وأتراحها وأشاطر مسراتها وأحزانها، أرى سعادتي بسعادتها وشقائي بشقائها، إذ أن العالم العربي محط آمالي ومعقد رجائي، فقد أغرمت بالجزيرة العربية منذ عهد الطفولة، وظللت مولعًا بحضارة العرب العرباء ومدنيتهم الرائعة وآدابهم الرفيعة ولغتهم الساحرة وأساليب كلامهم الآخذة بمجاميع القلوب وحسن تصرفهم فيها، اختمرت طبيعتي بحب العرب والعربية وسرى في لحمي ودمي حتى تغلغل في أحشائي، فأنا أولى بثروة العروبة الثقافية والحضارية وأكثر الناس استحقاقًا بها ولا تقل جدارتي عن طه حسين والعقاد وأحمد أمين وكرد علي، وإنني أعترف بأني ولدت في قرية نائية عن الجزيرة العربية، ونشأت في أرض عجمية بعيدة عن موطن الإسلام ومهد العروبة، ولكني استخدمت العربية كأداة فعالة للتعبير عما يختلج في نفسي من المشاعر والأحاسيس أكثر من لغة أخرى"[١].

وإن مجلة "البعث الإسلامي" التي أنشأها ابن أخيه الكاتب القدير الأستاذ محمد الحسني – رحمه الله – تحت رئاسته قد لعبت دورًا ملموسًا في ترشيد العالم الإسلامي، ومقاومة التحولات الباطلة بتأثير من الحضارة الغربية، فكتب الأستاذ محمد الحسني مقالات ثائرة على الاتجاهات السلبية والأفكار الزائغة التي شاهدتها أرض مصر في عهد الرئيس جمال عبد الناصر، فكأنه شكل جبهة حاسمة ضدّ زعماء العرب الذين تأثروا ببريق الحضارة الغربية ولمعانها، وكان لها صدى واسع في الأقطار العربية، حتى التجأت السفارة المصرية إلى حكومة الهند ورفعت شكواها عن أصحاب البعث الإسلامي، حتى تخوف أن

---

[١] كارثة العالم العربي: ١٥٩.

يضيق عليهم الخناق، وفرضت على أصحاب المجلة بعض القيود، ولكنهم ظلوا قائمين على الحق والجهر بكلمة الإخلاص وإعلاء كلمة الله، ونجحت جهودهم في سدّ سيل الحضارة الغربية الجارف، وتحققت أحلامهم إلى حد كبير، وأشاد بجهودهم كثير من علماء العرب، ومنهم الشيخ المجاهد محمد محمود صواف حيث قال: "لم يسبق شيء مجلة "البعث الإسلامي" وما قامت به من الجهود في كشف أهداف الناصر ونواياه الخبيثة".

محاولات الشيخ الندوي في مجال إرشاد القادة والزعماء

إن الشيخ الندوي كان له منهج ينفرد به في مجال الإصلاح والإرشاد، فإنه يثور كالليث ويبين موقفه بصراحة دون هوادة إذا كان رأى ما يخالف العقيدة الإسلامية والثوابت الدينية، وأما إذا كانت القضية قضية التساهل في العمل بالشريعة والتكاسل في التطبيق فيسلك حينئذ مسلك العفو والإغماض، وإن كان ذلك شيئا جليلا، استمر الشيخ الندوي في ترشيد الزعماء والقادة في العالم الإسلامي، اتصل بهم وفاوضهم في القضايا الدينية والإسلامية وراسل إليهم بأسلوبه الناصح الحكيم وأرشدهم إلى ما فيه صلاح الأمة العربية والإسلامية معرضا عما هم فيه من البعد عن الدين والعمل بأحكامه، ولم يشكل جبهة للهجوم عليهم والنيل من كرامتهم، إلا أنه قام بترشيدهم بكل حكمة وإخلاص وكل رفق وهوادة.

ونذكر – فيما يلي – بعض جهوده الدعوية الإصلاحية التي قام بها في الأقطار العربية والإسلامية بجانب ذكر اتصالاته وحواره مع القادة والزعماء، وإذا تأملنا هذه الجهود وجدناها تقتصر على أمرين:

(١) إيصال كلمة الحق إلى زعماء العالم الإسلامي وقادته دون مجاملة ولا مماطلة.

(٢) اختيار الطريق الأفضل للدعوة.

وإنهما مما اقتبسناه من كتبه ومحاضراته وخطبه ومواعظه.

المملكة العربية السعودية

سافر الشيخ الندوي سنة ١٩٤٧م إلى الحجاز يقصد الحج وزيارة المسجد النبوي الشريف، وكانت الجزيرة العربية في تلك الفترة من الزمن بدأت تتجه إلى جهة غير رشيدة وتغيرت في شيئ كثير من عاداتها وتقاليدها، شاهد الشيخ الندوي ما كانت عليه الجزيرة العربية عن كثب، وأحوالها وأوضاعها بنظر الداعية الحكيم البعيد الغور، فأقض مضجعه ما رآه من تدهور الأمة العربية في الأخلاق وإفلاسها في الحمية العربية، وابتعادها عن الصفات التي عرفت بها من القديم، وكتب إلى ولي العهد للمملكة مكتوبا يملؤه النصح والخير، وإنه لأول محاولة قام بها لمناصحة الحكام والقادة في العالم الإسلامي، فقد تأثرت بجهوده الدعوية المخلصة النفوس الكثيرة، لكونها تشتمل على الصدق والإخلاص، ولأسلوبه البليغ المؤثر على النفوس، ومن أبرز من تأثر به الشيخ عمر بن الحسن آل الشيخ الذي كان رئيسا لهيئة الأمر بالمعروف والمنكر وصاحب الثقة لدى الأمير السعود، وهو الذي أرسل به الشيخ الندوي مكتوبه ذلك إلي الأمير، وقد قرأ المكتوب في مجلس الأمير كما ذكر بعض الناس.

أشاد فيه الشيخ الندوي أولا بالمملكة العربية العربية ومكانتها السامية في الإسلام ثم صرح بما يعقد بها المسلمون في العالم من الآمال، بجانب ذكر اتجاهها الخاطئ الذي جرت عليه المملكة أخيرًا، وسلكت في

عنان من سبقها من الحكومات والدول، وبيّن لها بعض ما يصلح أحوالها ويسدد خطاها.

ثم سافر الشيخ الندوي إلى الجزيرة العربية سنة١٩٥١م وطالت إقامته في الربوع المقدسة فشاهد أن الجزيرة العربية تغيرت في كثير من عاداتها وتقاليدها، وقد سيطرت عليها الحضارة الغربية وجثمت على صدرها، حتى بهرت العيون والأبصار، فآلمه ذاك المنظر المؤلم، وأطار نومه، وأفزعته هذه الظاهرة المؤلمة، رأى الشيخ الندوي من واجبه - كمسلم مخلص لهذه البلاد ومستقبله، وكدارس للتاريخ وحضارته وطبائع الأمم والحضارات - أن يلفت نظر الذين يملكون زمام الأمور إلى مسؤوليتهم، وأن يقوم باتصال ولي العهد ويذكر له ما يصلح حالة المملكة عله يجد عنده أذنا صاغية، يستمع إلى نصيحته، وصادف أن قدم في تلك الأيام أمير المدينة المنورة فطلب الشيخ مقابلة معه في الخلوة كما طلب منه أن يسمح له بالحديث الخاص في جلسة خاصة لا يحضرها غيره ولا مرافقه، فأذن له بقلب منشرح، وقبل طلبه، وقد أعد الشيخ الندوي مكتوبًا يشتمل على النصح والتذكير، وقدمه إلى حضرة الأمير، ثم جرى - في ضوء ذلك المكتوب - في الحديث عن الأخطار التي تحيط بالجزيرة العربية وتكاد تدمرها من داخلها فأوضح في المكتوب بعض النقاط وأزال بعض الشبهات، استمع الأمير إلى كلامه في صمت وصبر من غير أن يقاطعه أو يبدي رأيه قبل أن يتم الحديث لأنه كان يملك عقلا مفتوحا وقلبا واسعا، وقد زرع هذا الاتصال بذورا طيبة صالحة، وأثمرت جهوده المباركة وظهرت نتائجها الحسنة في الأيام المقبلة.

كان من دأب الشيخ الندوي أنه يستعرض أحوال العالم الإسلامي

بما فيه الجزيرة العربية، ويزود الحكام والسلاطين – إذا مست الحاجة – بتوجيهات مفيدة وإرشادات صالحة، وجه الشيخ الندوي كعادتها تلك إلى الأمير فيصل رسالة توجيهية أخرى مفعمة بحب الجزيرة العربية وحضارتها ومتدفقة بالعاطفة الإيمانية والحمية الإسلامية، فقد نوه فيها أولا بما تملك الجزيرة العربية من المكانة السامية في قلوب المسلمين في مختلف أقطار العالم وما لعبت من دورملموس في مختلف أدوار التاريخ بجانب لفت عنايته إلى ما تبنت من الاتجاه الخاطئ أخيرًا فكتب:

"وقد يعتقد بعض الناس أن في هذا التوسع والانطلاق في مواد التسلية وتقليد الأقطار المتمدنة التي سارت وراء الغرب في أساليب التعليم وبرامج التعليم، وتطبيق مظاهر الحياة الغربية مما لا تقدم ولا تؤخر في نهضة البلاد وقوتها، ترفيها للشعب وتحقيقا لمطالبه وعلاجا للتذمر وشاغلا له عن التفكير الخاطئ وتقدما بالبلاد – ومع الأسف والاعتذار – لا أوافق على ذلك في ضوء التجربة والتاريخ، فليس هذا هو العلاج، وماء البحر المالح الأجاج لا يزيد الشارب إلا عطشا"[1].

كان الملك فيصل يقدر العلم والعلماء، وقد علم أن الشيخ الندوي مخلص في توجيه النصيحة لا يبتغي منه أجرًا ولا يطلب سؤلا، وأنه يتأسى في دعوته بأسوة الأنبياء والمرسلين، ولسان حاله ينطق: "وما أسألكم عليه من أجر" ووجده في رسائله الموجهة إليه بصيرًا بالأوضاع عالما بالأمور فقدره وأحله عنده مكانًا ساميًا، واستفاد من آرائه وتوجيهاته وتأثر بدعوته الإسلامية كثيرًا، حتى اصطبغ عقله بالفكرة الإسلامية ثم لما تقلد زمام الحكم ٣/نوفمبر سنة ١٩٦٤م حاول استرجاع

[1] كيف ينظر المسلمون إلى الحجاز وجزيرة العرب: ٤٣/ للشيخ الندوي

ما تكاد تفقد الجزيرة العربية من مكانة القيادة في العالم الإسلامي، وكانت تلك الفترة من الزمان محدقة بالأخطار، والأعداء ترصد لها بالمرصاد، على الرغم من ذلك كله تغلب الأمير فيصل على الظروف المخالفة في مدة قصيرة، وخيب المخططات العدائية والمؤامرات الإجرامية، وحاز الثقة لدى الجمهور، وملك الإعجاب، وبرز إلى العالم خادمًا للحرمين الشريفين ورائدًا للتضامن الإسلامي، وحاديًا على القضايا الإسلامية كلها في قوة ولباقة وألمعية، وهو الذي قام بتفعيل "رابطة العالم الإسلامي" وأسندها بتأييده وعطفه الملكي وحنانه الأبوي ونفع بها المسلمين في العالم.

كان الشيخ الندوي يعقد بالأمير فيصل بن عبد العزيز كثيرًا من الآمال، ويرجو منه مصالح كثيرة للأمة الإسلامية، وكانت بينهما صلات أخوية إيمانية، فظل يفضي إليه بذات صدره ومكنونات ضميره طول ولاية عهده وبعد أن أصبح ملكا للمملكة، ويشير عليه بما يراه أنفع للبلاد العربية وأصلح للأمة الإسلامية في مشارق الأرض ومغاربها، وقد أصبح الأمير فيصل – بصلابة رأيه وعزمه الأكيد وحكمته الإيمانية وقلبه المفعم بحب الإسلام وعقله المفتوح – أكبر خطر على مخططات الأعداء ومؤامراتهم، حتى تخوفت أوروبا وأمريكا على نفسها، وظن الأعداء فيه الظنون أن لو طالت له مدة الحكم لخيب آمال الأعداء وجعل مخططاتهم فاشلة، وذلك مما لا يطيقون عليه صبرًا، فتربصوا له الدوائر وحاولوا إزالة هذا السد المنيع، فأعدوا لتحقيق أمنيتهم الماكرة رجلا من أسرتهم هجم عليه فقتله على حين غفلة منه، ثم قام الإعلام الغربي بتبرير جريمته النكراء بأن القاتل كان قد خولط في

عقله، وأصابه الجنون ففعل ما فعل في حالة جنونه، وكان من الواقع ان الرجل أعده الأعداء – بكل فطانة ومكر – ليحقق لهم ما أرادوا من توسيع النفوذ الأجنبي ومخططاتهم الخطيرة المدمرة.

وكانت وفاته ثلمة كبيرة وخسارة لا تعوض، وقد خمدت شعلة رجاء الأمة، وطبعا انقطع خيط أمل الشيخ الندوي الذي يرى فيه أكبر عون لمستقبل المسلمين، وقد أثرت وفاته على نفسه.

تولى زمام البلد بعده أخوه الملك خالد بن عبد العزيز، وعهد إلى الأمير فهد بن عبد العزيز منصب ولي العهد، وفي تلك الفترة كانت المملكة قد قطعت أشواطا بعيدة في المدنية والرفاهية وارتفاع مستوى المعيشة وتدفق الثروات، وتبع ذلك ما يتبعه دائما من ظواهر طبيعية نفسية، وأحاط بها بحر المادية الهائج المائج من كل جانب، وتفشت طبعا كثير من الأدواء الخلقية، وقد سافر الشيخ الندوي إلى مدينة الرياض، وأفزعه تلك الظاهرة التي شاهدها في المملكة، وأراد أن يبث شجونه وأحزانه إلى الملك خالد الذي يملك زمام الأمور، وذكر له ما يجب لإقامة السدود والحواجز أمام السيل العرم للحضارة الأجنبية وماديتها الرعناء، وكتب – علاوة على ذلك – رسالة توجيهية مؤثرة إلى ولي العهد، وأرشده إلى الأخطار الخارجية التي تحيط بالجزيرة العربية مهد الإسلام ومهبط الوحي، كما لفت عنايته الكريمة إلى الأخطار الداخلية، وذلك كله في أسلوبه الناصح المخلص المفعم بالحب المراعي مكانة المخاطب السامية، يقول:

"فقد كنت حريصًا على لقاء سموكم، والحديث معكم في جلسة خاصة هادئة، مع معرفتي للمسئوليات الضخمة التي تضطلعون بها، وإنما جرّأني على ذلك ما كان عوّدني عليه أخوكم العظيم جلالة الملك فيصل

الشهيد من سماحه لي للحديث الخاص كلما طلبته، وحسن استماعه والصبر، وما كان أولاني به من ثقة، وآثرت أن أقيد ما أحب أن أضعه بين يدي سموكم مما يمليه عليّ الإخلاص للإسلام والمسلمين، ولهذه البلاد العزيزة المقدسة، فأعتمد على هذه الرسالة الخاصة رجاء أن تحظى منكم بلفتة كريمة، وإن كانت الرسالة لا تنوب عن حديث القلب مع القلب، وبثّ الشجون عن طريق العيون، ولعل الله يمنّ عليّ بلقاء آخر.

وأرجو أن تسمحوا لي بصراحة التزامتها في أحاديثي ورسائلي الخاصة لجلالة الملك الراحل رحمة الله عليه، والتي يقتضيها الإخلاص لهذه البلاد المقدسة، والأسرة الملكية الكريمة التي اختارها الله أخيرًا لخدمة الحرمين الشريفين، وخدمة الإسلام، والتي يقتضيها الواقع الدقيق الذي تعيشه هذه البلاد والأمة الإسلامية"[١].

ثم يلفت عنايته إلى الخطر الحقيقي فيقول:

"أما الخطر الداخلي فهو عندي أعظم من الخطر الخارجي، فبكل صراحة يا سمو الأمير! إن البلاد اليوم سائرة في طريق الانتحار تجتاح الشعب اليوم موجتان عارمتان، إحداهما موجة النهامة بالمال واستثماره والزيادة فيه، والوصول إليه من كل طريق شرعي وغير شرعي، نسيت معها جميع القيم الدينية والخلقية واحترام الإنسانية، ومصالح المقيمين والوافدين من أنحاء العالم الإسلامي، نستطيع أن نعبر عن هذه الظاهرة بهستيريا المادية والتكاثر، نشأت عنها مشكلات طريفة معقدة أصبحت منها البلاد في خطر.

والموجة الثانية هي الشغف الزائد بطرق التسلية والمتعة، فالبلاد

---

[١] كيف ينظر المسلمون إلى الحجاز وجزيرة العرب: ٥٧ — ٥٨.

تسبح اليوم في فيض من الأغاني وأنواع اللهو والتمتع، والتهرّب من كل ما يشقّ على النفس ويطلب الصبر وعلوّ الهمة، وبذلك يتجرّد الشعب العربي المسلم الذي عرف في التاريخ بالتقشف والبساطة والفروسية التي استطاع بها أن يضطلع بأمانة الإسلام ويتغلب به على الشعوب التي أنهكتها أدواء المدنية والترف عن كل أوصاف الرجولة والفتوة، وإذا استمرت هذه الحال مدة فإنه سينشأ جيل مائع رقيق متخنث لا يستطيع أن يقاوم أيّ تحدّ من الخارج أو الداخل، ويحفظ سلامة البلاد فضلاً عن أن يبلغ رسالة الإسلام، ويكون قدوة صالحة وأستاذًا موجهًا لمن يفد إلى هذه البلاد للحج من جميع أنحاء العالم الإسلامي"[1].

ثم يتحدث عن سيطرة الديانات الأخرى في المملكة ويذكر نتائجها السيئة وأخطارها الكبيرة:

"وقد قضى الله أن تكون هذه الجزيرة حرمًا للإسلام وحمى له، وأوصى بذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم فيما أوصى به في آخر عهده بالدنيا، فقال: "لا يجتمع بجزيرة العرب دينان"، وقال: "أخرجوا اليهود والنصارى من جزيرة العرب"، وعدم اجتماع دينين وإخراج اليهود والنصارى من هذه الجزيرة الذي أمر به الرسول صلى الله عليه وسلم، يحمل أبعادًا ومعاني أوسع مما يبدو ظاهرًا من اللفظ، وخطر نشوء جيل ليس بينه وبين الحرم ومسجد الرسول ورسالتهما تجاوب وانسجام، وتفاهم، واتفاق، بل بينهما بالعكس تباعد وتجاف، خطر لا يوجد له نظير في التاريخ الماضي، ووجوده — لا سمح الله بذلك — خطر على سلامة البلاد وكرامتها، يحرك الغيرة الإلهية كما وقع ذلك

---

[1] كيف ينظر المسلمون إلى الحجاز وجزيرة العرب: ٥٩ — ٦٠.

مرارًا في التاريخ"[١].

قد كتب الشيخ الندوي هذه الرسالة سنة ١٩٧٦م، ثم ظل هو يستعرض حالة الجزيرة العربية ويسافر إليها ويطول له القيام فيها لمدة أسابيع وشهور، ويقوم باتصال مختلف الطبقات من الناس، وجد الشيخ الندوي أن المملكة مادامت تتجه خطوات غير بريئة وقد قطعت أشواطا بعيدة في المادية الجامحة وتقليد الحضارة الغربية، وكاد المجتمع ينهدم أساسه، ويسترخي بنيانه، فشعر بحاجة أكيدة إلى الحديث عما تسرب إلى المملكة من عوامل الفساد والدمار مع قادة المملكة، فكتب رسالة مفصلة تشتمل على ثمانية عشر صفحات أسهب الكلام فيها عن حالة المملكة العربية السعودية، وإنها تنبئ عن بصيرته النافذة ونظره البعيد المدي، ودراسته العميقة الجادة لأوضاعها، وقد خاطب الشيخ الندوي بأسلوبه البليغ المؤثر الناصح الطبقة الحاكمة فيها وخاصة وجه الخطاب إلى ولي عهدها وملكها.

تحدث فيه الشيخ عما تحمل الجزيرة العربية من مكانة مرموقة في قلوب المسلمين ومدى ارتباطهم بها واعتبارهم مركز القيادة العالمية في مجال العقيدة والدين والسياسة والشريعة، كما تحدث عن حبه العميق لهذه الجزيرة وحضارتها العريقة، ثم أشاد بالمملكة العربية السعودية وإنجازاتها الواسعة النطاق في خدمة الحرمين الشريفين وضيافة القاصدين إليهما حتى تطرق إلى صلب الموضوع فلفت عناية القادة إلى حقائق حاسمة حصرها في ستة من الأمور، ثم ذكر تفصيلها على الترتيب، وهي كما يلي:

(١) وسائل الإعلام (٢) الأفلام الماجنة وتفشي البرامج التي تفسد

---

[١] كيف ينظر المسلمون إلى الحجاز وجزيرة العرب: ٦٢.

الأخلاق (٣) الصحافة (٤) الشغف الزائد بأنواع من اللهو واللعب وإشراف الحكومة عليها (٥) ارتفاع مستوى المعيشة (٦) رفاهية العيش واتجاه الشباب إلى مواد التسلية والترويح.

وقد أطال الشيخ كلامه عن هذه الركائز الأساسية وقام — بصراحة — بتحديد عوامل الفساد والدمار التي تسربت في المملكة وأشار إلى ما يدرأ الخطر وينقذ البلاد ويصون كرامتها وحرمتها في قلوب المسلمين في مشارق الأرض ومغاربها.

قد كتب هذه الرسالة بعنوان " إلى أين تتجه الجزيرة العربية وإلى أي غاية تنتهي" وأرسلها إلى قادة المملكة، وخاصة الملك خالد بن عبد العزيز بيد الشيخ ابن باز والشيخ عبد الله بن حميد، وقد قرأها الملك خالد بنفسه، وقد انتقل إلى جوار الله بعد فترة قصيرة، وتولى زمام المملكة بعده الملك فهد بن عبد العزيز.

مما يقضى له الأسف أن نشبت الحرب بمؤامرة من أمريكا بين بلدين شقيقين : العراق، والكويت، وقد تمخضت الحرب عن تدخل أمريكا في المواقع الدفاعية في المملكة العربية السعودية والعراق ودخلت القوات الأمريكية في كلا البلدين، وإن ذلك وصمة عار على جبين العالم العربي، وقد حاول الشيخ الندوي إرشاد الحكام ومن يتولون زمام القيادة في العالم العربي إلا أنه لم يجد فيها آذانا صاغية ولا قلوبا واعية، وجرت الأيام في سيرها الطبيعي، وظلت المملكة وأهلها في غفلة تامة، وفي اقبال متزايد على الملذات الدنيوية دون تمييز بين الحلال والحرام، وبالجملة تدهورت حالة العالم العربي دينا وخلقا، فكتب الشيخ الندوي رسالة قوية مؤثرة وجهها إلى جلالة الأمير فهد بن عبد العزيز، دعا فيها

إلى إصلاح ما وقعت فيه المملكة من سير غير صواب، والقيام بالمحاولة الجادة لجعل المجتمع مثاليا كما لفت عنايته إلى مسؤليته الحقيقية التي ألقيت على كاهله بوصفه ملكا لهذه المنطقة، يقول الشيخ الندوي:

"فإن شعور هذا الكاتب الفقير – إلى رحمة الله – بواقع العالم الإسلامي الأليم، وما يواجهه مركز الإسلام – الجزيرة العربية بما فيها الحرمان الشريفان – والأقطار الإسلامية من تحديات وأخطار، يدفعه – وهو يتشرف بتقديم بعض مؤلفاته إليكم – إلى توجيه هذه الرسالة المخلصة إلى من يعتبره الكاتب أجدر الناس وأقدرهم لمواجهة هذا الواقع الخطر ومعالجته، ولو استطاع أن يضع قلبه الخفاق ومخه المتألم في هذه الرسالة المتواضعة، ويكتبها بدمعه ودمه بدل الحبر الذي يكتب به، ولو استطاع أن يستغني عنها بالمثول والحديث الشفوي لفعل"[١].

يقول فيها الشيخ الندوي معلقا على ما يجري في الجزيرة العربية من التدهور الخلقي والانحطاط في القيم الإسلامية العربية:

" إن العالم الإسلامي اليوم بصفة عامة والجزيرة العربية والبلاد المقدسة بصفة خاصة تمر اليوم بمرحلة دقيقة عصيبة مصيرية، لا تتحمل تأخير ساعة ولا ادخار مجهود في مواجهة هذا الواقع، ومعالجة هذا الوضع الخطير، وقد تقام الخطب وكاد قول الله يصدق على الوضع الحاضر: "بلغت التراقي وقيل من راق"[٢].

ثم لفت عناية جلالة الملك إلى أمرين مهمين لا محيص عنهما في إصلاح البلاد العربية وخاصة الجزيرة العربية فقال:

---

[١] في مسيرة الحياة: ٣/١٠٠.

[٢] في مسير الحياة: ٣/١٠٠.

"أولاً : عدم وجود مجتمع إسلامي مثالي يرضاه الله تبارك وتعالى، ويكون نموذجًا، بل مرآة للتعاليم الإسلامية في العقائد أولاً، ثم في الأخلاق والمعاملات وشعب الحياة ثانيًا، يتنفس فيه الإنسان في طمأنينة وسكينة، ويشمّ فيه رائحة الإيمان، ويشعر بالسعادة الحقيقية، وكأنه انتقل من الجحيم إلى الخلقية تطبّق عمليًا، ويرى الإسلام يسعى على قدميه، ويتكلّم بلسانه، ويسود العقائد والمعاملات؛ ذلك المجتمع المثالي فُقِد اليوم تقريبًا، وإعادته من حاجات الإسلام، بل من حاجات العالم الأولى"[1].

"ثانيًا: والفراغ الثاني هو عدم وجود قيادة إيمانية دعوية قوية في العالم الإسلامي، تقترن بصفات الرجولة والطموح، وعلو الهمة وبُعد النظر والقدرة على مواجهة القوى العالمية الرئيسية القائدة، التي تملّكت زمام القيادة البشرية، وأصبحت تتحكم في مصاير الشعوب والأقطار الإسلامية وغير الإسلامية، من غير حق ومبرّر"[2].

يتجلى – مما كتبه من رسائل توجيهية مخلصة إلى قادة العالم الإسلامي – قلقه الشديد وتألمه على حالة الجزيرة العربية وإفلاسها في قيمها الشريفة كما تتجلى بصيرته الثاقبة وأسلوب دعوته الهادئ الرزين.

اتخذ الشيخ الندوي مركز دعوته البلاد العربية وخاصة الجزيرة العربية التي هي قلب العالم الإسلامي، وكان يعتبر صلاح العالم الإسلامي منوطا بصلاحه، فإذا صلح صلح العالمُ الإسلامي كله وإذا فسد – لا حاشاك الله – فسد العالم الإسلامي كله، فصب جهوده الدعوية عليها وأولاها الاهتمام الخاص بها، وقد ظهرت نتائجها الحسنة

---

[1] في مسير الحياة: ١٠١/٣/للشيخ الندوي

[2] في مسير الحياة: ١٠١/٣ – ١٠٢.

في إصلاحات جلالة الملك فيصل – رحمه الله – التي قام بها في عهده، فقد كان علما بارزا في مجال الإصلاح والدعوة والإرشاد، وساعيا لتأسيس الرابطة الأخوية العالمية، فقد كانت الرابطة – في فترتها القصيرة – قامت بمجهودات ضخمة في تقديم الأمة الإسلامية في كافة أرجاء المعمورة، وكادت الأمال الكبيرة تتعلق بها، ولكن فوجئت الرابطة بنكبة كبيرة بشهادة مؤسسها العظيم الملك فيصل، فتوقف سيرها، وكان خبر استشهاده وقع على الشيخ كالصاعقة إلا أنه لم ييأس من رحمة ربه، وظل يوجه دعوته إلى أمثاله من القادة والزعماء في العالم الإسلامي.

الكويت:

سافر الشيخ الندوي سنة ١٩٦٢م إلى الكويت واتصل بسمو أميرها الشيخ عبد الله السالم، وزوده بنصائح قيمة وتوجيهات رشيدة، وقدم إليه رسالة له تنبئ عن أسلوبه المخلص في توجيه النصح والإرشاد، تشتمل على إخلاصه لصالح البلاد وأهلها وحرقته الشديدة على أوضاع الأمة الإسلامية، فقد بدأها بالإشادة بالمآثروالمحامد التي اكتسبها أمير الكويت في عهده، ثم صرح بالأوضاع المؤلمة القاسية التي تمربها البلاد يقول فيها الشيخ الندوي:

الأمر الأول: "إن الله سبحانه وتعالى قد منح سموكم فرصة نادرة في التاريخ، تستطيعون أن تمثلوا دورًا خالدًا يذكر ويشكر، وهو ملأ أروع فراغ في مدنيتنا الحاضرة، وذلك الفراغ هو فقدان دولة تجمع بين الدين والمبادئ، وبين الوسائل والمادة، وفقدان مجتمع يجمع بين الإيمان والأخلاق، وبين اتصال بالعالم المعاصر والاستفادة بالتجارب الجديدة، وذلك فراغ لا يملؤه الآن أكبر دولة في العالم، وكل من يمثل هذا الجمع النادر بين الدين والمدنية

هو رجل الساعة المنتظر، وكل دولة تظهر بهذا الشعار هي دولة تحتل المكان الأول معنويًا في قائمة الدول والحكومات، وتتمتع باحترام لا تتمتع به أعظم دولة في العالم، هذا عدا النصر والتأييد الإلهي والبركات الكثيرة والحب العام الذي وعد الله به عباده المؤمنين الصالحين الذين يستخلفون لهذا الدين، ويحتضنون رسالته ويجاهدون في سبيلها.

والوسائل لتحقيق هذا الغرض متوفرة، والفرصة سانحة، والأمر ميسور، إذا صحت العزيمة وقويت الإرادة "إِنْ تَنْصُرُوا اللَّهَ يَنْصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ" [محمد: ٧].

الأمر الثاني: إن الله سبحانه وتعالى قد قضى منذ بعث رسوله صلى الله عليه وسلم أن لا نهضة للعرب ولا سيادة ولا وحدة ولا حل لمشكلاتهم، إلا عن طريق هذا الدين وعن طريق محمد صلى الله عليه وسلم، والتاريخ يشهد لذلك، والحوادث الجديدة قد برهنت عليه، فكل من يحاول أن يضعف صلة الأمة العربية بمحمد بن عبد الله صلى الله عليه وسلم، أو يحدث عنها كأمة مستقلة كانت قبل محمد صلى الله عليه وسلم وكانت بعده، وستظلّ قائمة بمواهبها وإمكانياتها، وتبني كيانها على أساس آخر، أقدم من البعثة المحمدية أو جديد، فهو يجني على الأمة العربية جناية لا تعدلها جناية وجريمة، ويقتلع من نفسها جرثومة الإيمان ويزلزل عقيدتها، ويهدم ما بناه المصلحون والمخلصون، وما بنته الأمة العربية في قرون، ولا يستحق تشجيعًا من دولة عربية مسلمة، فهو أعدى عدوّ لها، وهو الذي يقطع صلتها عن ماضيها وعن دنيا الإسلام الواسعة، وينضب معينها من غير تعويض يكافئ هذه الخسارة العظيمة، ومثل سموكم في غنى عن الشرح والتفصيل.

والشيء الثالث: هو توجيه المعارف في البلد الإسلامي العربي توجيهًا إسلاميًا مؤسسًا على تفكير أعمق، وتصميم وتخطيط خاص يتفق مع رسالته، وعقيدته، إذ "المعارف" هي مربية للأجيال القادمة، وعليها يتوقف مستقبل هذا الشعب الديني والخلقي واتجاهه وتوجيهه للمدنية، ومنع الميوعة والتفسخ الخلقي في الشباب والنشء، لأنه ما دخل في أمة إلا ضيعها وأذلها وأضعفها، وهو يعارض الاستقامة التي يطلبها الدين، والفروسية التي تقتضيها العروبة، الأمر الذي تحرصون عليه سموكم ولاشك.

والشيء الرابع: الذي تشكرون عليه هو مساعدة الشعوب المسلمة وتكميل مشروعاتها التي لا بقاءِ لها بغيرها، بما يفضل عن تقوية شعبكم الكريم وتنظيم شؤونه، ففي ذلك تقوية لشعبكم وزرع للحب في النفوس، وشكر على نعمة الله العظيمة.

والشيء الخامس: هو الحذر من قيام المعابد لغير المسلمين في أرض هذه الجزيرة التي ولاكم الله أمرها واستخلفكم فيها، فإن وجود هذه المعابد في هذه الجزيرة التي أوصى رسول الله صلى الله عليه وسلم بتجريدها للإسلام والمسلمين وعقيدة التوحيد الخالصة وعبادة الله وحده، التي جاء بها الإسلام، وإخلائها من اليهود والنصارى الذين هم أهل الكتاب فضلاً عن عباد الأوثان، وقد صح عن أمير المؤمنين عمر بن الخطاب أنه قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: "لأخرجن اليهود والنصارى من جزيرة العرب، حتى لا أدع فيها إلا مسلمًا"، وقال في آخر كلامه في الدنيا: "لا يبقين دينان على أرض العرب" وقالت عائشة رضي الله عنها: "كان آخر ما عهد رسول الله

صلى الله عليه وسلم أن قال: لا يترك بجزيرة العرب دينان"، ووجود هذه المعابد خطر على سلامة هذه البلاد، فإن أهلها يطالبون بحمايتها ويستغلون وجودها، فتنشأ مشاكل يعجز العقلاء عن حلها.

كذلك الحذر من تضخم عدد الأقليات غير الإسلامية والجاليات الأجنبية واستفحال أمرها وقوة مركزها، وتملك هذه الأراضي، فإنها ستنشئ دولة في ضمن دولة، وقضايا معقدة تدع الحليم حيران[١].

ويتجلى من هذه الرسالة أيضًا فراسته المؤمنة وبصيرته النافذة إلى بواطن الأمور، فإنه تفرس بنظرته الإيمانية ما حدث اليوم، وتمثل اليوم حقيقة ما أدرك بفراسته المؤمنة.

شرق الأردن:

سافرالشيخ الندوي إلى مملكة شرق الأردن سنة ١٩٥٧م، فاتصل بملكها الشيخ عبد الله مرتين، فانتهز الشيخ الندوي تلك الفرصة ولفت عنايته إلى قضية فلسطين، وتحريرها من الأيدي الغاشمة كما لفت عنايته إلى المشاكل التي يعانيها اللاجئون من الشعب الفلسطيني، وكان يصحبه في الرحلة الأستاذ عبيد الله البلياوي — رحمه الله — وهو يقول:

قال الشيخ الندوي لجلالة الملك: ما من شعب اتبع الدين الإسلامي لكامل معناه واتخذ تعاليمه منهاجا لحياته ودستورا لبلده أصبح مثالا رائعا للبلدان الأخرى ورحمة للعالم كله وإن كان بلده صغيرا، وجنوده قليلة، وعدته حقيرة". وإن جلالة الملك كان يستمع إلى كلام الشيخ الندوي وينظر إلى أحد وزرائه شزرا كأنه يقول له: أنظر إلى مايقول الداعية الهندي وإلى عقيدته الجازمة بعبقرية الإسلام".

---

[١] كيف ينظر المسلمون إلى الحجاز وجزيرة العرب: ١١٠ — ١١٣.

وقد ذكر الدكتور عبد الله عباس الندوي في كتابه "مير كاروان": إن جلالة الملك قدم إليه هدية غالية فلم يمتنع من قبولها لأن ذلك إساءة إلى جلالة الملك ولكنه أرسلها في صندوق تمويل مصالح الشعب الفلسطيني، وكان جلالة الملك يرعي ذلك الصندوق"[١].

ثم سافر إلى الأردن الشيخ الندوي مرة أخرى سنة ١٩٧٣م كرئيس لوفد رابطة العالم الإسلامي، فوجد أمور المملكة متغيرة ولم تكن على حالتها السالفة، وكان يتقلد زمام المملكة حفيده الملك حسين، وكان هذا السفر على دعوة منه، فاغتنم الشيخ الندوي الفرصة وألقى أمامه خطبة متدفقة بقوة الإيمان، ودعا الملك إلى ما يجب عليه من القيام بإراحة الشعب الفلسطيني واللاجئين السوريين قال فيها:

إن بعض الصالحين في الزمن السابق كان يقول: لو لم تكن لي إلا دعوة مستجابة لجعلتها لولي الأمر فإن في صلاحه صلاح البلد وفي فساده فساد البلد وإن لم أكن بهذه المكانة ولكني أتجاسر وأقولها للملك:

"لا يتركوا (اللاجئون السوريون) تحت رحمة المبشرين المسيحيين وجمعية غوث اللاجئين تستغل وضعهم الشاذ المزري المغري الذي يعيشونه، إنها أكبر مسئولية في الدنيا والآخرة وإننا جميعًا موقوفون أمام الله، مسئولون عن هؤلاء البؤساء الذين أخرجوا من ديارهم بغير حق إلا أن يقولوا ربنا الله"[٢].

ولم يكن من جلالته إلا حسن الإصغاء والتواضع وانتهى المجلس ومشى الملك يودعه ويسلم عليه.

---

[١] مير كاروان (أمير الركب)، ص: ٣٠١-٣٠٢/ للدكتور عبد الله عباس الندوي.

[٢] من نهر كابل إلى نهر اليرموك: ٢٠٢ - ٢٠٣./ للشيخ الندوي.

وبعد ذلك لم تسنح له الفرصة لزيارة شرق الأردن مع أنه كان بينه وبين ولي عهدها الأمير حسن بن طلال صلات وطيدة، وعلى الرغم من دعوته للحضور مرارا لم يسافر إليها، وشاء القدرُ أن يسافر إليها سنة ١٩٨٤م على دعوة من "مؤسسة آل البيت"، وكان الأمير حسن بن طلال رئيس هذه المؤسسة.

وقد حضر الأمير في حفلتها الافتتاحية وألقى فيها كلمة تقدير وشكر للضيوف القادمين وخاصة للشيخ الندوي ورحب بقدومه في بلده، وكان موضوع الحفلة الافتتاحية للمؤتمر التي عقد في ٢٧/ شهر رجب المرجب "قضية فلسطين وتحريرها من الأيدي الغاشمة" ألقى فيها الأمير حسن كلمة جامعة كاشفة عن مختلف جوانبه وخلفياته التاريخية والقضايا والأخطار المعقدة الدقيقة للعالم الإسلامي والعربي التي تنشأ بسبب وجود دولة إسرائيل المحتلة وقد قدم على أساس الخرائط التي أعدت خصيصا لهذه المناسبة إحصائيات تفصيلية، ثم لما فرغ من خطبته قام الشيخ الندوي خطيبا، ولفت عناية من حضر في المؤتمر من القادة والزعماء والعلماء إلى قوة الإيمان الحقيقية وحاجة العالم إليها فقال:

"إن هناك شواهد مستمرة في التاريخ الإنساني – وفي التاريخ الإسلامي بصفة خاصة –، أن الحقيقة الحاسمة المغيرة لمقادير الشعوب ومصاير الأمم، ليست هي القوة التي تعمل على تغيير خريطة البلاد السياسية، وخطط الحرب الاستراتيجية، والعدد والعدد والقلة والكثرة والأوضاع الغالبة القاهرة، بل إن القوة التي تحدث الثورة والانقلاب وتجعل المستحيل ممكناً، هي تلك الشخصية التي تمتلىء عزيمة خارقة للعادة وإيماناً صادقاً، متهيئة لتغيير الأوضاع وقلبها رأساً على عقب،

ومقدمة في سبيل ذلك كل تضحية وإيثار، والتي لا يقرّ لها قرار، ولا يهدأ لها بال في ركوب المخاطر وخوض المغامرات والبطولات، ويشهد التاريخ أنه لا تغني عند ذلك هذه الإحصائيات المحبوكة الدقيقة وتذوب جبال المشكلات والصعوبات والمخالفات والمعارضات كما يذوب الثلج أو تذوب الشمعة، وتطلع شمس النصر والفتح المبين وهاجة تقشع ضباب البرد، وتقطع حجاب الظلمة وتخطف بالأبصار، وهذا هو الدرس الذي نتلقاه من الحروب الصليبية، وتلك هي العبرة في حياة صلاح الدين الأيوبي، وقد أشار العلامة محمد إقبال إلى هذه الحقيقة بأسلوبه الخاص في بيتين من شعره، يقول فيهما:

"إذا كان أحد هناك يناضل مثل «الكليم»، فإنه لا يزال يأتيه نداء: لا تخف من شجرة الوادي الأيمن، لقد انكشف علي بصحبة الشيخ الرومي هذا السرّ الدقيق، إن «كليماً واحداً مستميتاً فوق مائة ألف فيلسوف حكيم".

وخلاصة الحديث وروحه؛ أن المسألة ليست مسألة الإحصائيات، فإنّ الإحصائيات تتغيّر إن المسألة الحقيقية هي وجود الرجل المختار، الرجل الذي يملك عزيمة وإيماناً، واعتزازاً بالدين، وإرادة قوية صارحة لتغيير الوضع مهما كان مدعماً بالحقائق والإحصائيات، رجل كصلاح الدين الأيوبي".

"فكشف الشيخ الندوي ما طرأ على القلوب من سحب اليأس والقنوط، كأنه شعر – بعد خطبة الأمير المشتملة على الأرقام والإحصائيات – بحالة الناس أنهم أصبحوا في يأس عن مستقبل الفلسطينيين الأحرار وعن استعادة مجد القبلة الأولي من براثن اليهود.

وبعد مغادرته شرق الأردن لم يعد إليها، ومضت على ذلك الأعوام تلو الأعوام حتى تلقى دعوة من "رابطة الأدب الإسلامي العالمية" وذلك سنة ١٩٩٨م، فسافر إليها للحضور في حفلتها التي تضم أمناء الرابطة، وواجه على مطار شرق الأردن ما واجه من عناء البحث والتفتيش، وقد سافر إلى الأردن من دولة باكستان الدكتور ظهور أحمد أظهر، وهو يصف حادث التفتيش في المطار بقلمه البليغ، ننقل فيما يلي نصه بعد الترجمة:

"من سخافة العقل والخبث الدفين في الباطن أن تتعرض الشخصية المثالية التي يعرفها العرب والعجم، والتي طبق ذكرها بين الخافقين لعملية البحث والتفتيش، وتحبس على المطار لمدة طويلة بدون سبب، وعلى الرغم من ذلك ما بدت على وجهه آثار الكراهية، بل تلقى كل ذلك مبتسما وبكل رحابة صدر، لم ينبس ببنت شفة، والناس حواليه يتحدثون عن أمر التفتيش ويعتبرونه تعديا عليه، وإنه — والله — خير خلف لسلفهم الصالح، الذين صبروا على الشدائد، وتحملوا المحن في سبيل الحق، وخير دليل على أنه من ذرية الحبيب المصطفى الذي دعا لمن عاداه ونصر لمن اعتدى عليه، وآثر العفو والصفح عمن ظلمه، وسرعان ما ظهرت آثار حلمه وصبره على المشاق حيث سارع العاهل الأردني الأمير حسن إلى عزل الرئيس المستبد الذي عانى الشيخ الندوي ورفقته من الصعوبات بإيعاز منه، وأصدر الأمر بفسخ مجلس الوزراء الذي كان يرأسه، وتشكيل مجلس جديد للوزراء، وما إن طلعت شمس الغد إلا وقد حضر رئيس وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية في مجلس الشيخ الندوي وأخبر أن وفده المكون من أمناء الرابطة الإسلامية هم من ضيوف

المملكة، والتمس منه أن ينزل مع وفده في فندق ذي خمسة نجوم، ولكن امتنع الشيخ الندوي واعتذر بأنه هنا في أحسن حال وأهدأ بال"[١].

وإن مملكة شرق الأردن كان زمامها في تلك الفترة بيد الأمير حسن، وكان الملك حسين مصابا بالمرض الذي لقي فيه الموت، وكان متمرضا في الولايات المتحدة الأمريكية، وكانت الصلات بين الشيخ وبين الأمير حسن وطيدة، ودعا الأمير وفد الرابطة إلى مأدبة رسمية فاخرة حضرها عدد وجيه من الوزراء وأعيان البلدة، ثم ضمهم مجلس الحوار فيما بينهم، وألقى فيه الأمير كلمة عالية، ودعي أخيرا سماحة الشيخ الندوي إلى الخطاب فقال الشيخ الندوي:

"سعدت بعد مدة طويلة بالحوار مع العدد الوجيه من السادة والمشايخ العرب، وأريد مغتنما لهذه الفرصة السعيدة أن أقول بصراحة: أن العرب لم يكن قوما يذكر ويعرف، يتيهون في الصحراء المجدبة القاحلة فاصطفى الله منهم رسولا لتبليغ رسالته الخالدة، وجعلهم حملة رسالة سماوية بعد أن كانوا يتسكعون في الظلمات ويتخبطون خبط عشواء، وعلمهم بما لم يكونوا يعلمون به من قبل، حتى خضعت لهم البلاد العظيمة ودانت لهم الرقاب المستعصية، وتذللت لهم بلاد الروم والفرس – التي لم تكن تحتفل بهم – حتى ألقت إليهم مقاليد القيادة والوصاية على العالم البشري، وأصبحت مطيعة في كل شأن، وممتثلة لكل أمر، وكل ذلك بفضل طاعة الله والرسول وانخراطهم في سلكه وتمسكهم بذيله، وإن التاريخ يعيد نفسه اليوم، ويريد رجعة القهقرى، وقد أراد بهم العالم شرا ونكرا، وتكشرت القوات العالمية عن أنيابها

---

[١] مجلة قافلة الأدب الإسلامي الباكستانية: ١/ ١٤٩.

لابتلاع ما حصل لهم من النباهة والمجد والشرف وإعادتهم إلى صحراء الذلة والخمول التي أخرجهم الله منها.

أيها السادة العرب! إنكم حصلتم بنعمة الإسلام ما حصلتم من العز والقوة، وإنه اليوم منبع قوتهم الوحيدة، ولست أول من قال ذلك، وإنما قال ذلك قبلي أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه: "نحن قوم أعزنا الله بالإسلام، فمهما ابتغينا العزة في غيره أذلنا الله" فلا عز لكم أيها السادة إلا بالإسلام، لا بالقومية العربية ولا بالأحزاب الوطنية"[١].

يقول الدكتور ظهور أحمد وكان من الحاضرين في الحفلة:

"بدأ الشيخ الندوي بالخطبة بلهجة عربية قوية أخذت بمجامع القلوب وملكت علينا النفوس، حتى نسينا أننا في مجلس ملك من ملوك الدنيا، والكل حواليه مستمعون إلى كلامه صامتين، ولما فرغ من خطبته لهجت به الألسن، وتأثرت به وبكلامه النفوس وأثنى عليه الجميع"[٢].

ثم ازدادت الصلة بينهما موثقة يتبادلان الحب، حتى تأثر بفكره الإسلامي السليم عن طريق كتبه ومقالاته القيمة التي لعبت دورا ملموسا في تغيير وجهته إلى الرشاد، حتى عقدت به الأمة الرجاء وظنت به خيرا إلا أن الملك حسين عزله في مرض وفاته وقرر ابنه ولي العهد، "وكان أمر الله قدرا مقدورا".

مراكش

سافر الشيخ الندوي إلى مراكش على دعوة من رابطة الجامعات الإسلامية وأقام فيها مدة أسبوعين، ودعي في أواخر أيامه في مراكش إلى

---

[١] مجلة قافلة الأدب الإسلامي الباكستانية: ١/١٥١ — ١٥٢.

[٢] مجلة قافلة الأدب الإسلامي الباكستانية: ١/١٥١ — ١٥٢.

مأدبة ملكية فاخرةحضرها مع الملك حسن الثاني عدد وجيه من أعيان البلدة، وقد وجه الملك دعوته إلى الشيخ الندوي لزيارة مراكش إلا أنه اعتذر كل مرة لكثرة شواغله العلمية والدعوية، وقد تهيأ له الجو في هذه الزيارة لاتصاله بالملك، قام الشيخ الندوي بإلقاء الكلمة نيابة عن الملك، فكانت الكلمة نموذجا رائعا لدعوته الحكيمة كأنه ضرب على الوتر الحساس قال:

"إنني أسعد بتبليغ رسالة كريمة إليكم عن العالم الإسلامي، أراها أمانة في عنقي ومسؤولية على عاتقي، وهي أن المسلمين اليوم في مشارق الأرض ومغاربها ينتظرون بفارغ الصبر أن يطلع من أفق العالم الإسلامي نجم جديد يعلقون به آمالهم، إنهم يعيشون وضعاً مترديا عصيباً عجيباً يحتاجون فيه إلى قائد عصامي، مؤمن ألمعي، يمتاز بإخلاصه ويقينه وعزمه الراسخ وقلبه الواثق"[١].

ويتحدث الشيخ محمد الرابع الحسني الندوي عن بعض تفاصيل هذه الزيارة فيقول:

"كان من حسن المصادفة أن الملك كان مقيما في مراكش، فقابله الشيخ الندوي لأنه هو الذي أعطى الفرصة لإلقاء كلمة النيابة عن الوفد، فألقى الشيخ الندوي خطبته بأسلوبه الأدبي المؤثر الهادئ الذي راعى فيه مكانة الملك وصراحة الكلام الحق، ودعاه إلى الشعور بما ألقيت على كواهله من أعباء الرعية وإراحتها وإصلاح ما تدهورمن حالتها الخلقية والدينية، ومعرفة الأوضاع الراهنة ومقتضياتها المعاصرة، وكانت الفرصة دقيقة وجادة لأنها موعد حضور أعضاء المؤتمر من مختلف أقطار العالم

---

[١] في مسيرة الحياة للشيخ الندوي: ١/ ٣٧٧.

الإسلامي لزيارة الملك والتسليم عليه، لا تسع لموعظة دينية أو لكلام إصلاحي، ولكنه تولى هو بإلقاء كلمة النيابة عن الوفد التي لا تتجاوز التهنئة بالملك والإشادة بمكارمه ومحامده، وإن لها شأنا يعرف في الأوساط المتحضرة الراقية، فقد قام الشيخ الندوي بالموعظة الحسنة البليغة بأسلوبه الصريح مع مراعاة الموقف الحرج والتأدب بآداب المجلس الملكي ومقامه الرفيع، وبعض كلامه يشتمل على ما أفضي إليه من الأوضاع المعاصرة في البلاد، وقد جاء كلامه في مكانه وأوانه، فوقع من النفوس موقعا حسنا، ثم التمس بعض العلماء فرصة للحوار فأعطيت له الفرصة إلا أنه لم يتمكن من مراعاة الموقف ومقتضياته على رغم كونه من أهل اللغة العربية، ثم لما انفض المجلس أشاد كل من حضر من العلماء والدكاترة بخطبة الشيخ الندوي المؤثرة وبلاغة كلامه الذي راعى فيه مقتضى المناسبة والمقام، وركاكة كلام ذلك الفاضل الذي لم يقدر على مراعاة المناسبة والمقام، وكنت قد شهدت المجلس فأعجبت بما شاهدت من حسن كلامه وطلاقة لسانه ورصانة كلماته، كان الشيخ الندوي يتكلم بالعربية الفصحى معلقا على الأوضاع المعاصرة كالناقد البصير والأديب القدير، وتيقنت أن ليس له إلا بالعناية الإلهية التي تمد كل من أخلص قلبه لله وأسلم نفسه لمرضاته وتحوطه برعايتها، وقد شاهدته غير مرة أنه صرح بموقفه العادل ونظرته الإسلامية البناءة أمام الأمراء والسلاطين في العالم الإسلامي تصريحا غير مجامل ولا مكترث، وقد خفت حينئذ أن يكون كلامه يعدّ إساءة إلى مكانة المخاطب أو نقصا في كرامته، فيحدث رد فعل في نفسه، ولكنه تغلب دائما على كل هذا الموقف الحساس والمشكلة الحرجة، وكسب بكلامه البليغ المخلص القلوب، وملك بأسلوبه الهادئ

المفعم بالصدق والإخلاص على النفوس، وازداد قدره بين الأوساط الحاكمة، وقد شيعه الملك عند مغادرته إلى الباب إجلالا له وتعظيما، وكرر دعوته لزيارة بلاده بين فينة وأخرى"[1].

وقد زار الشيخ الندوي عددًا من دول العالم، وخاطب حكامها بحكمة بالغة، وأسلوب مؤثر مقنع، ودعاهم لخدمة الدين، وقد لوحظت نتائج حسنة لهذا التوجيه الحكيم فيما بعد.

اليمن:

سافر الشيخ الندوي عام ١٩٨٤م إلى اليمن لأول مرة، فرحب بقدومه الناس بجميع طبقاتهم وأوساطهم، وتلقوه بحفاوة بالغة، وقد قام بتقديره الأوساط الرسمية، حتى عقدت له حفلة لإلقاء الخطبة أمام الجيش، وحضر هذه الحفلة التي تم انعقادها في المسجد الجامع (جامع المظفر) عدد كبير من علماء المدينة وأعيانها كما حضرها رئيس الدولة ونائبه والوزراء، وقد سنحت له فرص أخرى سعيدة للتحدث مع الشعب اليمني في مناسبات شعبية، وتمت له لقاءات مع كبار العلماء وأصحاب الفكر، فأبدى انطباعه عن اليمن وسروره الغامر وتحدث عما وصف النبي صلى الله عليه وسلم بلاد اليمن، ودعاهم إلى الحفاظ على شخصية اليمن الإسلامية، وأرشدهم إلى ما تدبره الدول الأوروبية ضد الإسلام والمسلمين من مؤامرت ودسائس عن طريق التعليم ووسائل التربية".

الإمارات:

تلقى الشيخ الندوي دعوات متكررة ومخلصة ملحة من أعيان دولة الإمارت، لأنهم كانوا على معرفة بشخصية الشيخ الندوي عن طريق

---

[1] الشيخ أبو الحسن علي الحسني الندوي شخصية صنعت التاريخ، ص: ١٤٣–١٤٤.

الكتب والمؤلفات العلمية والجهود الدعوية، وكان بينه وبينهم علاقات ودية أخوية وصلات روحية طيبة، وفي مقدمة هولاء الحريصين على زيارته للإمارات حاكم شارقة سمو الشيخ سلطان بن محمد القاسمي، فسافر الشيخ الندوي على دعوة منه، وإن الشيخ سلطان بن محمد القاسمي قد تكرر لقاؤه مع الشيخ الندوي حين زار لكناؤ – في زيارة رسمية للهند – وقد عقدت الحفلة في رحاب ندوة العلماء إجلالا وتكريما له ورحب به الشيخ الندوي في تلك الحفلة "بقوله: نعم الأمير على باب الفقير، وبئس الفقير على باب الأمير".

وكانت زيارته الأخيرة لدول الخليج آخر رحلة خارجية عندما أختير لجائزة الشخصية الإسلامية العالمية، واتصل بالشيخ الندوي الدكتور تقي الدين الندوي أستاذ جامعة العين في الإمارات من أبو ظبي هاتفيًا وطلب منه إلقاء المحاضرة، فاعتذرعنه الشيخ لمسؤولياته وأشغاله المتواصلة، وحلول شهر رمضان وتدهور صحته، إلا أنه ألح في الطلب، وقال: يرجى أن تكون زيارته هذه مفيدة في تغيُّر الجوّ، وكان ذلك بمناسبة تكريم الشخصيات العلمية في العالم الإسلامي، فسافر إليها مع رفقته، وشارك في حفل التكريم.

وقد حضر في حفلة التكريم جمهور غفير من أعيان الدولة والمهتمين بالقضايا الإسلامية، وتمثل الشيخ الندوي في كلمته ببيت من شعر الدكتور محمد إقبال:

" لا وجود للعالم العربي بالحدود والثغور، وإنما العالم العربي بمحمد العربي صلى الله عليه وسلم" ثم شرح البيت شرحا وافيا كسب قلوب المستمعين الذين غصت بهم الساحة الواسعة، وأعلن الشيخ

الندوي في حفلة تكريمه عن توزيع جائزة دبي على المدارس والمؤسسات الإسلامية، وأمطر عليها كصيب نافع مدرار كما قال أحد الصالحين: إن الصلحاء إذا أكرموا فانقلبوا أيدي معطاء سخية"، ووقع كلامه من القلوب موقعا حسنا على رغم ضعف الصوت وقواه المنهارة.

وقد جاء لمقابلته سمو الشيخ الأمير سلطان بن محمد القاسمي حاكم شارقة، ونائب رئيس الدولة الشيخ سلطان بن زائد، وقد أثر حضوره واتصاله في الإمارات وظهرت له آثار طيبة، ثم رجع الشيخ الندوي بعد ثلاث ليالي أقام فيها في دبي، إلى الهند.

إيران

سافر الشيخ الندوي سنة ١٩٧٣م إلى إيران، واتصل فيها بعديد من أشراف الدولة وأعيانها كما اتصل بوزير الشؤون التعليمية فوجه إليه سؤالا فيه شيئ من الوخز والتأنيب، يفهم كل من له معرفة بعلم الاجتماع، لأنه يشتمل على رواسب راسخة في التاريخ وفلسفتها، وقد أشار إليه الشاعر الإسلامي محمد إقبال حيث قال: لم تخرج أرض العجم رجلا ذا قلب وعاطفة إيمانية بعد جلال الدين الرومي على الرغم من أن الأرض هي تلك الأرض وأن الماء هو ذلك الماء.

قال الشيخ الندوي: إن الدارس لتاريخ إيران الإسلامي تصيبه الحيرة في أن الأرض الإيرانية التي عرفت في عصورها الأولى بالنوابغ والعباقرة في كل مجال من مجالات الحياة، فكيف عقمت اليوم من تخريج الرجال الأفذاذ، ولماذا تقاصرت عن الإبداع والإنتاج؟ وما هو السبب في هذا التدهور المشين والإفلاس في الفكر والعاطفة؟ تمر الأيام والليالي بل الأعوام والقرون ولم نسمع برجل برز من أرضها وخرج من الطبقة

المتوسطة حتى احتل مكانه بين الخاصة والعباقرة، ودوي اسمه في الآفاق وكسب الصيت العالمي، فلما لم يجب عنه أحد قام الشيخ الندوي في شرح الأسباب والعلل التي أصاب الأرض فجعلتها عقيمة من توليد الرجال، وحصرها في أمرين: (١) العصبية الممقوتة لموقفها الديني والانحياز البغيض للطوائف الدينية الأخرى.(٢) البعد التام عن الإحسان والتزكية التي تضرب على أوتار القلوب وتنفخ فيها الروح الإيمانية.

يجدر بنا ذكر قصة جرت له مع آيت الله الخميني قائد الثورة الإيرانية وهي أن الشيخ الندوي كان نزيلا في مكة للحضور في مؤتمر رابطة العالم الإسلامي، وحضر وفد من العراق للحضور في المؤتمر يرأسه الخميني، وكان الخميني يقضي أيامه المنفية في العراق قبل الثورة، وقد عرفه أحد فقال الخميني: نعم أعرفه من خلال كتاب " ردة ولاأبابكر لها، وياليته سماه "ردة ولا أبا حسن لها".

فأجابه الشيخ الندوي أن المثل العربي هو كما سميته " ردة ولا أبا بكر لها، وقضية ولا أبا حسن لها.

وبعد ذلك اليوم حضرت وفود الرابطة لزيارة الكعبة المشرفة ولكن كان هناك ازدحام شديد فتوقفوا هنيهة في ناحية من صحن المطاف، وكان مع الشيخ الندوي الأستاذ أبو الأعلى المودودي ثم اتفق أن جاء الخميني يقول: هنا علمان من أعلام العالم الإسلامي، فلندع الله " ثم رفع يديه للدعاء يقول فيه: ربنا اغفر لنا ولإخواننا الذين سبقونا بالإيمان، يكرر تلك الكلمات ولا يزيد عليها فأكمل الشيخ الندوي الآية و"لا تجعل في قلوبنا غلا للذين آمنوا ربنا إنك رؤوف رحيم" فضحك العلامة المودودي وقال: أبيت إلا تنطق بالحق".

لا يدرك مدى خطورة عمله ذلك إلا من له اطلاع واسع على عقائد الفرقة الشيعية المنحرفة وما يحملون في قلوبهم من الغل والحقد الدفين للصحابة الكرام – رضي الله عنهم ورضوا عنه – حتى أنهم لايرونهم على الحق إلا ثلاثة أو أربعة.

وكانت له مواقف مع الخميني قائد الثورة الإيرانية، فقد صرح الشيخ الندوي بموقفه الصريح الغير المجامل كلما بدت له حاجة التصريح، وأشاد بما للصحابة فضل كبير في صيانة الدين الإسلامي وما يحتلونه من المقامات الرفيعة والرتب العلية حسب التصريح القرآني لم يخف في ذلك لومة لائم، وإنه هو فكرة المتزن ومنهجه المعتدل الذي تميز به عن غيره من الدعاة والمصلحين، صرح بالقول كلما رأى في الصراحة خيرا، وسكت إذا رأى في السكوت خيرا ونفعا للإسلام والمسلمين، لا يخاف في الله لومة لائم ولا بطش سلطان قاهر.

ويدل على ذلك ما جرى له في المملكة العربية السعودية أن الشيخ الندوي وجه النقد الشديد إلى موقف المملكة إزاء أتباع الديانة المسيحية (كانت المملكة تتخذ موقف استرضاء المسيحيين) في مؤتمر رابطة العالم الإسلامي، صرح الشيخ الندوي في خطابه ذلك بالنقد القاسي على الموقف السعودي الرسمي الذي يميل إلى استرضاء المسيحيين ومعاندة اليهود، فأكد على أن الصهيانة اليهود وأتباع المسيحية وجهان لعملة واحدة يساويان في عدائهما للإسلام، ومحاربة المسلمين، فلابد من اتخاذ موقف حاسم غير مجامل لكلتا الجبهتين اللتين تبذلان كل ما وسعهما من قوة الفكر والمال في إبادة المسلمين من أرض فلسطين، كان الخطاب مثالاً للحمية الإسلامية والجرأة الإيمانية والصدع بالحق، يقول الشيخ محمد

الرابع الحسني الندوي الذي كان يصحبه في تلك الرحلة: إن الشيخ الندوي كان يعترف بأن خطابه ازداد في الصراحة بعض الشيئ وفي شدة النقد وصرامة لهجته بعض الشيئ إلا أنه قال: الحمد الله الذي على أني قمت بزيارة الحرمين الشريفين وسعادة الحج والعمرة عدة مرات بتوفيق الله وكرمه، فلا أبالي بعد ذلك بما إذا فرضت على بعض القيود من قبل المملكة أو أمنع من الدخول في المملكة، وما قلت إلا ما رأيت صوابا وأقرب إلى الإسلام ومنهاج النبوة، ويجب على أرباب المملكة العناية بهذا الجانب المهم.

وقد تلقى دعوة من الملك السعودي بعد ذلك الخطاب الصريح، فقصد الملك، فتلقاه الملك بحفاوة بالغة، وأكرمه ولم يذكر ما كان منه شيئا، لأن هولاء يدركون شخصية الشيخ الندوي ويعرفون طبيعته الإسلامية وصراحته الإيمانية، ويعرفون أنه ليس كعلماء يطلبون السمعة الكاذبة فيميلون في خطبهم إلى التحامل على القادة والزعماء ويوجهون إليهم تهما صادقة أحيانا وغير صادقة في أحيان كثيرة، ويعتبرون أنفسهم في مصاف "الناطقين بالحق والصادعين بكلمته عند سلطان جائر" وكان الملك يعرف أن الشيخ الندوي يحمل في صدره قلبا مخلصا ناصحا للمملكة، لا يقول إلا ما يراه خيرا لها، فكلما وخزهم الشيخ الندوي وأنبهم على مواقفهم بخطبه ورسائله تأثروا بكلامه المخلص الصريح، وسلكوا مسلك الاعتراف والرجوع إلى الحق والصواب.

تركيا:

كانت تركيا مقر الخلافة الإسلامية، وكان الأتراك تميزوا عن غيرهم من الحمية الإسلامية والتحمس المطلوب في خدمة الإسلام

والمسلمين، وقد لعبوا دورا ملموسا في الذود عن حياض الدين والدفاع عن حصن الإسلام، وعلى الرغم من محاولات ضخمة قام بها كمال أتاترك لانتشال ما كان في نفوس الأتراك من الحماسة الدينية، لم ينجح في إطفاء جذوة الإيمان لأن الغيرة الدينة كانت راسخة في سويداء قلوبهم، لذا حينما ارتفع الأذان بعد حقبة من الزمن من منارات المساجد ودوت أصواته في آفاق السماء غمرتهم الفرحة والسرور وانهمرت عيونهم ووقعوا سجدا بصوت المؤذن الشجي الذي تقادم عهده، وخلال هذه المدة جهل الشعب التركي الخط العربي الذي تمت به كتابة القرآن لايعلمون منه شيئا، وأصبحت الحضارة الغربية مسيطرة على المجتمع التركي، ونشبته بمخالبها، وقد جعلت الجنود الأتراك المسلمين فاقدين الوعي والشعور الإسلامي، خمدت قلوبهم من شعلة الإيمان، بل معادين للإسلام وحضارته وأفسدت عقولهم، وفي الوقع أنهم هم الذين كانوا يطربون من ذي قبل بأصوات الآذان المرتفعة من منارات المساجد، ويخفون إليه للصلاة خاشعين قانتين، أما الشعب التركي لم تزل قلوبهم مفعمة بحب الإيمان، وإنما تمسها الحاجة إلى غرس معاني التوحيد وحقائق الإسلام في قلوبهم كي تثمر وتؤتي أكلها بإذن ربها، وكانت تحتاج إلى معلم بارع بصير يربي الشعب التركي على أصول الإسلام، ويدربه على المنهج الإسلامي الصحيح الذي يجعل منه بركانا ثائرا على الجاهلية المستحدثة، وعاصفة هوجاء تأتي على فتنة القومية الملعونة حتي يستعيد ما كان له من المجد والسؤدد والغلبة والرفعة بين الشعوب الأخرى وتغني الأمة الإسلامية بعطائها المتجدد وهمتها الوثابة.

كان الإمام الشيخ أبو الحسن علي الحسني الندوي مطلعًا على

تاريخ تركيا، بل كان أكبر خبير بما لها من مكانتها المتميزة بين البلاد وما تحمله من الثروات والكفاءات المطلوبة في قيادة العالم، فكان يرجو من أهلها ويعقد أحلامه بأهداب بصائرهم، ويعلق آماله بحبال همتهم، فانبعث في خطبته التي ألقاها أمام الشعب التركي بصراحة فقال: مهما أمرُّ بهذه الآية عند تلاوة القرآن " وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَانَكُمْ إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَحِيمٌ " يلتفت ذهني إلى الشعب التركي، كأنه هو الذي خاطبه الله سبحانه بهذه الآية، وحثهم على الاستقامة والصبر والكفاح وبذل التضحيات في سبيل الدفاع عن الدين، والحفاظ على الثوابت الإسلامية، والتمسُّك بالشريعة الإسلامية كما جرى سلفكم في الماضي متدفقين بالإيمان، والجد والنشاط، والصبر والكفاح، وكانوا على استعادة مجد المسلمين الغابر، ورفع راية الجهاد، واسترجاع مدينة قسطنطينية عاصمة الدولة البيزنطينية من الأيدي الغاشمة، وتولى أعباء الخلافة، وصيانة المقدسات الإسلامية حتى ملأوا قلوب الأعداء رعبًا، ودوخوا بلادهم، فإن الله سبحانه لن يضيع أعمالهم.

سافر الشيخ الندوي إلى تركيا عدة مرات، ولكن لم يقدر له أن يتصل بأحد من قادة تركيا وزعمائها إلا نجم الدين أربكان رئيس حزب الرفاه، قد قابله بنفسه وتحدث مع الشيخ الندوي عما ينفع تركيا، ويأتي إليها بخير، فأشار عليه الشيخ الندوي بكثير مما رآه صالحًا ونافعًا للبلاد، فامتثل أربكان لما أشار عليه الشيخ الندوي، وضم كثيرًا من العقول الإسلامية إلى نظام الحكم بحكمة وبصيرة، حتى قدر الله سبحانه أن يكون نائب رئيس الوزراء، ثم رئيس الوزراء، وشغل هذا المنصب الخطير قائمًا بالأعمال الجسيمة، وقد أعد في هذه الفترة جيلا إسلاميًّ

العواطف والشعور، سار بعده على منواله من القيام بما يطيقونه من نفاذ التعاليم الإسلامية، وإصلاح المجتمع التركي.

ومن المصادفة السارة أن الشيخ الندوي لما سافر إلى تركيا مرة أخرى عام ١٩٩٦م كان نجم الدين أربكان رئيس الوزراء، ولكن لم يحصل بينهما اللقاء لأجل أنه كان خارج تركيا لأمور حكومية مهمة، فكتب الشيخ الندوي رسالة إليه تشتمل على بعض النصائح الغالية، قد بدأ الشيخ الندوي في رسالته تلك بذكر بعض المآثر والمحامد التي يمتاز بها الشعب التركي من خدمة الدفاع عن الدين الإسلامي وصيانته من الضياع ثم قال:

" أول ما تفتقر تركيا قبل كل شيء أن نصب جهودنا لتحرير الشعب التركي من البلدان الأوربية والأمريكية وخاصة طبقة الشباب المثقفين الذين تخرجوا في الجامعات العصرية ، إذ يرجى أن يكونوا قادة البلاد في المستقبل، فمن أولوياتنا محاولة إنقاذهم من الحضارة الغربية وماديتها الجامحة، وتطهير عقولهم ونفوسهم من أرجاس المدنية اللادنية والثقافة الملحدة، لأن الحضارة الأوربية هي التي جعلتهم فاقدين الوعي والشعور الإسلامي، مسلوبي الإرادة الصارمة، والثقة بالنفس، وهى التي أضعفت قواهم، وحرمتهم العاطفة الإسلامية، والحماس القومي، وروح التضحية والفداء والإيثار والاستماتة في سبيل الدفاع عن حوزة الاسلام وشريعته السمحة العادلة، فأصبح الشعب التركي اليوم قاصرًا —بالنسبة لماضيه المشرق الزاهر— عن أداء مسؤوليته ومقاومة المادية الرعناء، والحضارة الغربية اللادينية، ومكافحة الأفكار الهدامة، والعقلية الأوربية ، فيجب غرس الثقة في نفوس الشباب بالحقائق

الدينيـة، ونفـخ روح الاعتمـاد فـيهم، إذ بقـاء الإسـلام منـوط بحبـال عزيمتهم، ومربوط بشدة غيرتهم على العقيدة، وقد لعبوا دورًا رائعًا في مختلف أدوار التـاريخ في صـيانة العقيـدة الإسـلامية وإبقـاء أصـالة الـدين الإسلامي، وقيادة الحركات الدينية والجماعات الإسلامية".

كان للشيخ أمين سرّاج الذي كان يشغل منصب الإمامة في المسجد الفـاتح بتركيـا، علاقـة طيبة بالشيخ النـدوي منذ أيام الطلـب، فأوصـاه الشيخ الندوي أن يقوم بإنشاء الكتاتيب الدينية في البلاد، فقبـل مشـورته وامتثل لما أمره به، وقد لعب ذلك دورًا رائعًا أساسيًا في إصـلاح المجتمـع التركي، وقد ظل الأستاذ يوسف قراجه بدوره ساريًا على مـنهج الشيخ الندوي في إصلاح الشعب التركي، وبث فكره المستقيم، ونهجه المعتدل في الأوسـاط العلميـة، عـن طريـق ترجمـة كتاباتـه الدعويـة والعلميـة والفكرية والأدبية والإصلاحية، وقد كانت حياة الأستاذ حافلة بالعطاء، وقد استفاد منه خلق كثير، وعلى رأسـهم الـرئيس التركي رجب طيب أردوغـان، وهـو يعـرف في الطبقـات المسـلمة بحصـافة فكـره، واعتـدال نهجه، وصلابة رأيه، مع مراعاة الأحـوال والظـروف، ترجـو منه الأمـة المسلمة في مختلف أقطارها كثيرًا، ولعل الله يحدث بعد ذلك أمرًا.

باكستان

كان للشيخ الندوي صلة وثيقة بدولة باكستان، يتعلق بها من جهة الأسرة والآصرة الروحية معًا، أما من جهة الأسرة فلأن كثيرًا مـن أقاربـه وعشيرته يستوطنون هذه البلاد، ومـنهم عمتـه الكريمـة وزوجهـا الأسـتاذ السيد محمد طلحه الحسني، وأما من جهة الآصـرة الروحيـة فـلأن شيخه الروحـي الأول الشـيخ الخليفـة غـلام محمـد ديـن فـوري، والمفسر الشـيخ

أحمد على اللاهوري، كانا من هذه البلاد ولادة ونشأة، وعلاوة على ذلك أن العالم الرباني الشيخ عبد القادر الرائيفوري اتخذها وطنًا له، ويمكث فيها مدة طويلة.

بعد انفصام دولة باكستان عن الهند حتي عام ١٩٧٨م سافر إليها الشيخ الندوي عدة مرات، ولكنه لم يحاول لقاء أحد من زعماء البلاد كما لم يتصل به أحد، وأول من لقيه من زعمائه وقادته الجنرال ضياء الحق، ويرجع فضل ذلك إلى مؤتمر آسيوي لرابطة العالم الإسلامي، عقد في كراتشي في أواخر شهر يونيو عام ١٩٧٨م حضره عدد وجيه من ممثلي مختلف البلاد والطبقات المثقفة، ورأس هذا المؤتمر الأستاذ اي كي بروهي وزير القانون والشؤون الدينية لباكستان، كما افتتح المؤتمر رئيس الدولة، وكان وزير الشؤون الدينية يتصل بالشيخ الندوي صلة حب وتقدير، فجاء هو بالجنرال ضياء الحق للقاء الشيخ الندوي، فالتمس منه الجنرال ضياء أن يوصيه بدعاء خاص من الأدعية، فتحدث أمامه الشيخ الندوي عن أهمية "الصلوة على النبي"، وأوصاه بالإكثار منها، ثم ذكّره بمسئوليته نحو صيانة الحجاز المقدس والحرمين الشريفين، ولفت عنايته إلى ألا يدخر وسعًا في صيانتهما، بل يبذل في سبيلهما كل ما يملكه من مساعي وتدابير، وقد استمع الجنرال ضياء الحق إلى كلمة الشيخ الندوي بأذن صاغية، وتأثر بكلامه، وحافظ على الصلاة على النبي في حياته، وتشرَّف بزيارة الحجاز المقدس كلما سنحت له الفرصة للزيارة، وأقام صلات ودية قريبة متينة مع الحكومة العربية السعودية، وتعاون معها كلما دعت الظروف.

وفي هذه الزيارة دعا الجنرال ضياء الحق الشيخ الندوي إلى القصر الرئاسي، وخلال اللقاء قال: هل لكم حاجة إليّ؟ قال الشيخ الندوي

قولاً حكيمًا : "عليكم أن تحسنوا العلاقات مع الهند، لنتمكن من القيام بأعمال التعليم والدعوة والخير والبناء في جوّ الأمن والمحبة والسلامة"، فقد التزم الجنرال ضياء الحق بذلك وعمل به طول حياته، حتى لم يحد في أحوج الأوضاع وأقسى المواقف من ضبط النفس والاعتراف بالواقع والحلم والتحمُّل، وبعد عودته أرسل إليه الشيخ الندوي رسالة وبعض كتبه، وقدم الشيخ الندوي في رسالته مقترحات وتوصيات بشأن نفاذ النظام الإسلامي في باكستان، فقد قرأ الرئيس الباكستاني المقترحات بتمعُّن، وطالع الكتب، وأبدى انطباعه الطيب وتأثره بالكتب في رسالة شكر وجهها إليه.

وكان من المقرر عام ١٩٨٠م أن يسافر الشيخ الندوي إلى باكستان، ولكن ألغى السفر لأسباب قاهرة، وكتب رسالة مفصلة إلى الرئيس الباكستاني لفت فيها نظره إلى تطبيق النظام الإسلامي في دولة باكستان، وردّ عليها الرئيس الباكستاني ردّ طيبًا، أنقل اقتباسًا منها فيما يلي:

"إن المقترحات والتوجيهات التي قدمتموها بشأن تطبيق الشريعة الإسلامية في دولة باكستان، لقد تأثرت بها غاية التأثر، أسعى سعيًا حثيثاً أن أطبق النظام الإسلامي في جميع شعب الحياة في أقرب ما يمكن، وأقصر فرصة، لأن التطبيق العملي للنظام الإسلامي ليس مما يقتضيه الدين فحسب، بل مصير بلدنا مرتبط به، أدعو الله أن يوفقنا لإكمال هذا العمل الجليل، ويلهمنا الهمة والقوة والصبر والثبات".

وفي عام ١٩٨٤م زار الشيخ الندوي شرق الأردن واليمن والحجاز، وفي عودته مرّ بباكستان، فأقام بها أربعة أيام، ولما علم الجنرال ضياء الحق بقدوم الشيخ الندوي إلى كراتشي، زار كراتشي

مصادفة، والتقى بالشيخ الندوي، وفي هذا اللقاء قدّم الشيخ الندوي إلى الرئيس الباكستاني تمثال قبة الصخرة الرخامي، وكان قد أهدي إليه في عمان، وكانت هذه الهدية السنية إشارة خفية إلى " أن استخلاص المسجد الأقصى المبارك مسئولية من مسئوليات رئيس مؤمن لبلد مسلم كبير كباكستان".

وكان لقاؤه الأخير مع الرئيس الباكستاني الجنرال ضياء الحق عام ١٩٨٦م حينما عاد الشيخ الندوي من تركيا، فنزل بباكستان لثلاثة أيام، قضاها في كراتشي، ولما علم الرئيس الباكستاني بقدومه، اتصل به هاتفيًا ودعاه إلى إسلام آباد، فاعتذر، فوصل الرئيس نفسه إلى كراتشي لزيارته ولقائه، فجرى اللقاء.

وكانت صلة الرئيس الباكستاني بالشيخ الندوي صلة حبّ وتقدير وإجلال، وكان يقدّر نصائح وآراء الشيخ الندوي أيما تقدير، ويأخذها بعين الاعتبار، فقد طالع بعض كتب الشيخ الندوي بشوق ورغبة، واستفاد بها، وأدخل كتابه الشهير "إذا هبت ريح الإيمان" في مقرر الجيش الباكستاني، وطالع بنفسه كتاب "سيرة النبي صلى الله عليه وسلم" للعلامة السيد سليمان الندوي، الجزء الذي يتحدث عن النظام الإسلامي للحكم، والمعاملات، والسياسة، وقد كتب له الشيخ الندوي مقدمة مفصلة حافلة، فتأثر بها تأثرًا كبيرًا، وأعلن عن منح مائة ألف روبية كجائزة تقديرية للشيخ الندوي، فأعطى الشيخ الندوي نصف هذا المبلغ "أكاديمية دار المصنفين" التي طبعت هذا الكتاب، وأما النصف الباقي فأعطاه ذوي العلامة سليمان الندوي، ولم يقبل منها شيئًا، ولما التقى الرئيس الباكستاني بالشيخ الندوي قال: لو قبلت هذه الجائزة،

لسررت وسعدت كثيرًا، فقال الشيخ الندوي: "ليس ذلك بخلقي" وكان الرئيس الباكستاني يعرف موقف الشيخ الندوي عن جائزة الملك فيصل، فرضي بجواب الشيخ الندوي وسكت.

وكان الشيخ الندوي يعقد بالرئيس الباكستاني آمالاً كثيرة، وكلما حصل اللقاء نصحه وأوصاه بما فيه نفع للأمة ودولة باكستان، وأشار عليه بأن يدخل كتاب "فتوح الشام" في مقررات الجيش، ويلزم أن يطالع الجنود هذا الكتاب لتنشأ فيهم عاطفة الجهاد، ويطلعوا على مآثر السلف وتضحياتهم الجسام في سبيل إعلاء كلمة الله، وكان الرئيس يملك فكرًا حصيفًا جديًا، وقد خطط خططًا محكمة لإعلاء كلمة الله، وكان يسعى سعيًا حثيثًا بحكمة وأناة لإنجاز خططه ومشاريعه حتى وقعت حادثة وفاته، فذهبت خططه ومساعيه سدى.

وكان الملك السعودي فيصل والجنرال ضياء الحق في مقدمة الحكام والملوك الذين فكروا ودبروا وسعوا لغلبة الدين، والوحدة الإسلامية، وكان للشيخ الندوي صلة خاصة بهما وهما أيضًا يتلقيان نصائح وتوصياته بغاية من الاحترام، ويحاولان للعمل بها قدر ما يمكن.

وفي زيارته لباكستان عام ١٩٨٤م وجّه إليه أحد المراسلين لصحيفة واسعة الانتشار في باكستان سؤالاً، وهو أن الرئيس يَعِدُ منذ مدّة بأنه سيحول هذه البلاد إلى بلد إسلامي بالمعنى الصحيح، ويطبق الشريعة الإسلامية، ولكن هذا الوعد لا يزال بعيدًا عن التطبيق، ولا يبدو أيّ مؤشر إليه، فما هو رأيك في هذا الصدد؟

فردّ عليه ردًا يستحق أن يعد أصلاً من أصول الدعوة، ويحمل في طيه إرشادًا حكيمًا وتوجيهًا رشيدًا للعاملين في مجال العمل الإسلامي، فقال:

"إن هناك طريقتين أو موقفين، أحدهما أن يقول رجل مسلم لا يبدو في مظهر ديني علني، أنه ينوي بناء مسجد، فتقولون له ما شغلك ببناء المسجد، وما بالك ببناء بيت من بيوت الله؟ ألا تستحي؟ هل دخلت المسجد مرّة، وهل وفق له أحد من أجدادك، فإنه يتخلى عن هذه الفكرة منفعلاً بهذه المجابهة الشنيعة، والموقف الثاني أن تقولوا له: ما شاء الله! يا سبحان الله! ما أطيب هذه الفكرة، وما أحلاها، وفقك الله وقوّاك، فإن أمثالك قد قاموا ويقومون ببناء المساجد، وهنيئًا لك هذا الشرف، ندعو الله أن يقدر لنا المساهمة في هذا العمل الجليل، فنكون عضدًا لك، فإذا كان هذا الرجل مترددًا أو ضعيف الإرادة فإن إرادته تقوى بهذا الموقف، ويعزم على تحقيقه، ويسعد ببناء المسجد"[1].

وآخر قادة باكستان الذي التقى بالشيخ الندوي، هو الرئيس الباكستاني سردار فاروق أحمد لغاري لقي الشيخ الندوي عام ١٩٩٧م حينما عقدت ندوة عالمية لرابطة الأدب الإسلامي العالمية، ووجهت الدعوة إلى الشيخ الندوي للحضور فيها، فقبل الشيخ الندوي الدعوة رغم ضعفه، ووجهت الدعوة إلى الرئيس الباكستاني أيضًا للحضور فيها، فلما علم بقدوم الشيخ الندوي قبل الدعوة، ورضي بالحضور، يقول مصطفى صادق خان: لما قرأ الريس الباكستاني اسم الشيخ الندوي في الدعوة، سأل مستفسرًا:

"هل هو علي ميان (الشيخ الندوي) الذي ينتمي إلى مدينة لكناؤ، ويحترمه ويجله العرب؟ قبل سنوات لقيته في سويتزرليند، وكان معي فاضل مصري سعيد رمضان، وكنا نتجول حتى حان وقت الصلاة،

---

[1] في مسيرة الحياة، ج/٢، ص: ٥٤—٥٥.

فصلينا خلف الشيخ الندوي، ولم أنس حتى الآن ما لمست فيه من الكرم والنبل، وما سمعت من حسن قرأته، وما شهدت من خشوعه وخشيته، وشوقه وجذبته، وتضرعه في الدعاء، تلذذت أنا وصديقي العربي بهذا المنظر الرائع الجميل المؤثر الذي لن ينسى، إذا كان هو ذلك الشيخ الندوي فألغى جميع برامجي وارتباطاتي في ذلك اليوم، وإني لأحضر في الجلسة الافتتاحية لهذه الندوة".

واستقبل الرئيس الباكستاني الشيخ الندوي استقبالاً رائعًا على المستوى الرسمي، وعقدت الجلسة الافتتاحية في القاعة الحمراء بلاهور، وحضر فيها الرئيس، ولما قام المسئولون عن الندوة بتوجيه كلمات الشكر إليه قال:

"هذا حق علي أن أشكركم على أن منحتموني هذه الفرصة لأسعد بالحضور؟".

فالتقى الرئيس بالشيخ الندوي بغاية من الاحترام والإجلال، وبقي حاضرًا في الجلسة إلى نهايتها، وكان يوم الجمعة، وكان من المقرر أن يصلي الجمعة في مسجد الحسن بالجامعة الأشرفية ويلقى فيه خطبة، فصلى فيه الرئيس أيضًا، واستمع إلى الكلمة، وشارك في الدعاء، وقال الشيخ الندوي في دعائه مرارًا: يا ربّ اجعل باكستان بلدًا إسلاميًا بالمعنى الصحيح"، وكان هذا الدعاء رسالة واضحة إلى الرئيس ودعوة حكيمة إلى أن يفكر في هذا الصدد ويسعى عمليًا.

الهند:

كانت "حركة رسالة الإنسانية" نتيجة لهذا التفكير الإيجابي البناء للشيخ الندوي، فكان شعوره قويًا بأنه ليس أي عمل سهلا بدون كسب

ثقة الأغلبية، وخاصة أن عمل الدعوة لا يثمر بطريق مرجو إلا إذا كان في جو الثقة المتبادلة والتفاهم والأمن والسلام في البلد.

وفي أعقاب تقسيم البلاد عام ١٩٤٧م، حدثت أوضاع حرجة للغاية، أو أُحدثت بطريق مخطط، وأثيرت الشبهات والشكوك وسوء التفاهم عن الإسلام والمسلمين حتى امتلأت القلوب والأذهان بالكراهية والعداء، والخوف والذعر من الإسلام، ونشأت منظمات وحركات هندوسية كان شغلها الشاغل وهوايتها المحببة تسميم الأذهان، وإفساد القلوب، وإحداث العداء والكراهية ضد الإسلام والمسلمين، وتعكير جو التعايش السلمي، وفي مقدمتها منظمة آر أيس إيس المتطرفة التي قامت لهذا الغرض المشؤوم، ولم تكن هذه الظروف القاسية تضر المسلمين فحسب؛ بل كانت ينذر بخطر داهم لسائر سكان البلاد، وقد شعر بذلك عدد من المثقفين الهندوس، كانوا ناصحين ومحبي الأمن في البلد، ويدركون أن البلد إذا كان متجهًا إلى هذا الاتجاه الخطير لا يمكن حمايته من الانهيار والتعرُّض للدمار، وطبعًا كان المسلمون عرضة لهذا الاتجاه الخطير، فبذلك كانت مسئولية المسلمين أكثر من غيرهم، ولكن قليل ما هم من يشعرون بهذه المسئولية، ويفكرون في هذا الصدد بجدية بالارتفاع عن المصالح الذاتية والعصبيات القومية.

وقد ذُكر فيما سبق أن الشيخ الندوي يمتاز بأنه درس التاريخ من وجهة النظر الدعوية، واستقى من دراسته وتدبُّره في القرآن أصولاً لا يمكن الوصول إليها لمن يحمل فكرًا ضيقًا، وأدرك الشيخ الندوي بفراسته المؤمنة وفهمه الدقيق للوضع أن هذا الوضع إذا لم يُغَيَّر، وتفاقم، لخرج من التغلُّب عليه، فنهض واتصل بعدد من القادة والزعماء من السيخ

والهندوس والجينيين وزعماء الطبقات المضطهدة، والعاملين في مجال الخدمات الاجتماعية، ودعاهم إلى التفكير في هذا الصدد بجدية وتمعُّن.

وكان يؤكد خلال حديثه مع المسلمين على أن يشاركوا في أعمال بناء الوطن، ويزيلوا من مجتمعهم أسباب التخلف والصراع والجهل، وأن يكون وجودهم باعث الخير والبركة، ويقول: إذا كان المسلمون بعيدين عن تيار الحياة فإنهم يصبحون لا يُعْبَأُ بهم، ثم يُهمَّشون تدريجيًا، وكان مراده بتيار الحياة، حاجيات الحياة الإنسانية، والقيم والمثل الإنسانية المشتركة، ولم يكن مراده به الاندماج في التيار القومي، كلا إنها كلمة لن يقبلها أبدًا، بل كانت حساسيته زائدة في هذا الصدد إلى حد أنه يقول بصراحة وحماسة: إن سمع أحد منا في المنام دعوة للاندماج في التيار القومي فعليه أن يصيح صيحة، وأكد الشيخ الندوي مرارًا وتكرارًا وبقوة أننا قررنا أن نعيش في هذه البلاد محتفظين بشخصيتنا الإسلامية، ومتمسكين بهويتنا الدينية، ولن نتنازل عن شريعتنا قيد شعرة، ولكنه مع ذلك يدرك بفراسته المؤمنة أن المسلمين لم يعودوا أن يبقوا في مساجدهم ومدارسهم بأمن طويلاً، فلابد لهم أن ينهضوا ويثبتوا نفعهم وإسعافهم لهذه البلاد، ودورهم في بناء الوطن، وذلك يصب في صالح الوطن والإنسانية، مع كونه خير وسيلة مؤثرة لصيانتهم وبقاء وجودهم: "فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً وَأَمَّا مَا يَنْفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الأَرْضِ".

فكان قانون "البقاء للأنفع والأصلح" دائمًا أمام عينيه، فقد نادى بذلك منذ تقسيم البلد عام ١٩٤٧م، وعقد اجتماعات مشتركة ضخمة، وخاطب فيها، وتحدث عما كان صوت الضمير والقلب لسائر الناس، وكان يراعي أجواءهم وعقلياتهم، يعرفهم بالإسلام، ويزيل

الوحشة منه، وسوء التفاهم، ويحثهم على دراسة الإسلام والسيرة النبوية بعمق وإنصاف، وقد نشرت الكلمات والخطب التي ألقاها في هذه الاجتماعات المشتركة باسم "بناء الإنسانية" [بالأردية] وتساعد هذه الخطب في استنباط طرق حكيمة للدعوة، ولم يزل قائمًا بمفرده بنشر الرسالة الإنساية إلى عام ١٩٧٤م حتى تقرر تأليف منظمة باسم "حركة رسالة الإنسانية" من مدينة إله آباد، شعورًا منه بأنه وحده لا يستطيع أن يفعل شيئًا، فشعر بأن جاء الوقت أن يرفع هذا الصوت بقوة، فعقد لهذا الغرض جلسات ضخمة واجتماعات مختلطة في مختلف مدن البلد، وأجرى الحوارات واللقاءات مع القادة والزعماء والعاملين في مجال الخدمات الاجتماعية، وكتب رسائل إلى الحكام والوزراء، ورئيس الوزراء، يلفت فيها أنظارهم للعمل لسلامة البلد، ووحدته ورقيه ورفاهيته، ويدعوهم لمكافحة ما يهدد كيان البلد، ويجرّ إليه الهلاك والدمار، وقد طبعت هذه الكلمات والخطب باسم "إنقاذ البشرية وإسعادها"(بالأردية) فعلى العاملين في مجال الخدمات الاجتماعية ومجال الدعوة أن يطالعوها، ويستقوا منها ما يساعد في العمل في هذا الحقل.

وكان الشيخ الندوي يعتبر حركة رسالة الإنسانية قلعة حصينة لجميع الأعمال الدينية والحركات الملية والدعوية، فيقول في مقابلة له حول حركة رسالة الإنسانية:

"إني محق في قولي أن هذه الحركة والجهود المبذولة للإصلاح الخلقي، بمثابة قلعة حصينة لجميع الجهود الدينية والمساعي التعليمية والأنشطة العلمية، وأعمال البناء والرفاهية، فكل جهد يبذل متحصنًا بهذه القلعة يتكلل بالنجاح، ويجد العاملون جوًا آمنًا ملائمًا لأهدافهم،

فلذلك أعتبر هذه الحركة خادمًا ومساعدًا لكل حركة".

وكـان الشـيخ النـدوي يـرى أن خـير الطـرق وأجـداها لعـرض الإسلام، وتعريف الإخوة المواطنين بالإسلام، أن نصل أولاً إلى قلوبهم وعقولهم، ثم نعرض أمامهم قيمًا مشتركة تستلفت أنظارهم، يقول:

" ليس هناك طريق لتوجيه أنظار الأغلبية غير المسلمين والتوصل إلى قلوبها وعقولها، سوى التعرُّض لقضايا الحياة المشتركة، والإنسانية، والأخلاقية الفاضلة، ومصلحة البلاد، والدلالة على الحلول الناجعة لجميع المسائل والمشاكل المعاصرة، وتفهمهم قيمة المسلمين الذين لا يزالون يحملون التعاليم السماوية، ويؤمنون بالله واليوم الآخر، وأن المادة والعاجلة ليست كل شيء في هذا الكفاح الوطني، وفائدة الدور الذي يستطيعون أن يمثلوه في إنقاذ البلاد، وهو الطريق الذي يمكن أن يحملهم على دراسة الإسلام وفهم نفسية المسلمين، وإعطائهم حقهم ومكانتهم الصحيحة والاستفادة من هذه الثروة الغالية الموهوبة التي ليست مجرد مصادفة أو حادثة تاريخية، بل هو قدرها اللاذب، وحظها المقسوم"[١].

وقال في كلمة له: "إن حركة رسالة الإنسانية حاجة العالم الإنساني كله" وكان أمامه أسوة الرسول صلى الله عليه وسلم، فإنه صلى الله عليه وسلم شارك في "حلف الفضول" وكان صلى الله عليه وسلم مغتبطًا بهذا الحلف، متمسكًا به حتى بعد البعثة يقول: "لقد شهدت في دار عبد الله بن جوعان حلفًا، لو دعيت به في الإسلام لأجبت".

ولما وجه إليه سؤال: لماذا اعتبرت من مسئوليتك أن تقوم بالدعوة في بلد غالبية سكانه من غير المسلمين؟ فردّ عليه قائلاً:

---

[١] في مسيرة الحياة، ج/١، ص: ٢٤٨.

"إن من واجب المسلم أنه أينما كان يعتبر نفسه مسئولاً عن مجتمعه، ولا يتعامى عن الأخطار بدسِّ الرأس في الرمل مثل النعامة، ولا يردد درس " كل شيء على ما يرام" فإن على المسلم حقًا في كل مكان، الأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، والقيام بالإصلاح، وإزالة الفساد، وليحسب نفسه راكبًا سفينة الحياة التي إذا غرقت غرقت مع الجميع.. فنحن كلنا ركاب سفينة واحدة، هي سفينة بلادنا إذا غرقت–لا سمح الله– فلا تنجو مؤسساتنا ولا مكتباتنا ولا شخصياتنا المحترمة ولا العلماء الفضلاء ولا العاملون الصلحاء".

وكتب مقدمة قوية لمجموعة خطبه الخمس التي ألقيت في اجتماعات مشتركة، ونشرت باسم "مقام الإنسانية"، أكد فيها على هذه الحقائق تأكيدًا بالغًا: يقول:

"إن العالم الإنساني يحتاج فيما يحتاج إليه أن توضع أمام الإنسان، بالارتفاع عن المصالح الذاتية، والعصبيات القومية، والمصالح السياسية، تلك الحقائق والقيم التي تلزم لنجاته وحياته بأمن وسلام، وهي حقائق إذا أغفلت تعرضت حضارتنا ومجتمعنا لأخطار جسيمة، وواجهت صراعاً عنيفاً للبقاء".

فبدعوة منه عُقد مؤتمر على مستوى كبير على هذا الموضوع في إله آباد في الفترة ما بين ٢٨ و٣٠ ديسمبر سنة ١٩٧٤م، وتحدث فيه وقرّر بدء هذه الحركة على مستوى البلد قائلاً:

"مما يبعث على الأسف الشديد أننا ما رأينا حركةً أو جماعةً تقوم بإصلاح ما عمَّ في البلد من الأوبئة الخلقية، وإزالة الفساد، ونشر الحياة الروحية والإنسانية والقيم الخلقية، فانتظرنا طويلاً، وأخيرًا قررنا –رغم

شعوري بقلة بضاعتي ووحدتي وضعف تأثيري— أن أنزل في الميدان وأخاطب الناس من دون تمييز بين المسلمين وغيرهم، وأحذرهم من عواقب الحياة المادية المتطرفة".

فأنشيء في لكناؤ مكتب لها باسم "حركة رسالة الإنسانية لعموم الهند" بشكل منتظم، وبدأ العمل، ولم تكن هذه الحركة حركة جديدة، أو جمعية نشأت حديثاً، بل كانت دعوة صريحة وجّهها الشيخ الندوي إلى الناس، فلم يُنتَخب لها رئيس، أو سكرتير، أو أعضاء مخصوصون، بل كانت جبهة مشتركة ومنبرًا مشتركًا للذين نادوا بنداء غريب وجديد لم تألفه الأسماع من قبل، وقد أحرزت نجاحًا كبيرًا بقيادة الشيخ الندوي الحكيمة الرشيدة.

وأما الأهداف التي تهدف إليها هذه الحركة، فهي تتلخص فيما يلي كما كتب المتحدث باسم الحركة الشيخ إسحاق جليس الندوي:

١. تنشيط الروابط الشعبية، وعقد المؤتمرات والاجتماعات، ونشر الكتيبات والمنشورات النافعة في مختلف اللغات من أجل إيجاد جوّ الحب والتضامن على أساس العلاقات الإنسانية البحتة، والأواصر الوطنية الهندية، ومكافحة الاتجاه إلى الانحلال الخلقي.
٢. تعريف الإنسانية المتناحرة المتشائمة بغرض الحياة الحقيقي السامي النبيل، ومتعتها الأصيلة عبر الخدمات الإنسانية والأعمال الخيرية.
٣. تطهير المجتمع من الرشوة، والأثرة، والاحتكار، والطائفية، واللاقانونية، والاستغلال الاقتصادي، وشن الحملة ضد المجون والدعارة بكل قوة وشدة.
٤. بذل المجهود لمحو التقاليد الظالمة والطقوس القاسية القاهرة.

٥. إسعاف الطبقات الفقيرة المضطهدة والمتخلفة الملهوفة في المجتمع بغض النظر عن دينها وانتمائها القومي أو العنصري.

٦. إيجاد الجدية والكفاءة العلمية وإشعال عواطف خدمة البلاد والمجتمع في الشباب بصفة عامة والطلبة بصفة خاصة من أجل صيانة البلاد من الأخطار الناشئة عن انحرافات النشء الجديد.

٧. بذل المحاولات بقدر الإمكان لخلق جوّ أخوي متناصر متعاطف[1]

لقد أثرت هذه الحركة تأثيرًا كبيرًا، وأدت دورًا كبيرًا في تخفيف حدة الأوضاع المتوترة المتأزمة، ووضع بلسمًا شافيًا على الجروح، وعقدت اجتماعات مشتركة في مختلف أنحاء البلد تحت هذه الحركة، شارك فيها جميع الطبقات والفئات، وزال سوء التفاهم، وتألفت القلوب، وهدأت العواطف في الأماكن التي عقدت فيها هذه الاجتماعات، وأمكن تجنُّب الصراع، وزالت الكراهية والعداء، وساد جوّ الثقة المتبادلة والاحترام المتبادل، والتعايش السلمي، وكان الشيخ الندوي يخاطب في هذه الجلسات المشتركة، فيتعين بكلمته المؤثرة المقنعة اتجاه الاجتماع، ثم يتحدث المتحدثون الآخرون فيوضحون كلمة الشيخ الندوي الجامعة الحافلة.

كان الشيخ الندوي دائماً على صلة بالأحداث السياسية، والظروف الاجتماعية، ولا يدخر وسعاً في إبداء رأيه وموقفه بدون نقد أو معارضة سياسية، ويقيم اتصالات بالمسئولين عن طريق الرسائل، وكان منهجه فيها: أولاً الاعتراف بأعمال المخاطبين ومآثرهم

---

[1] أخذت ترجمة هذه الأهداف باللغة العربية من "حركة رسالة الإنسانية ودورها في مكافحة الطائفية والعنف" للأستاذ السيد واضح رشيد الحسني الندوي. ص: ١٢.

وخدماتهم، وذكر القيم المشتركة، ثم عرض الغرض الأصيل من كتابة الرسائل، وهذا أحسن طريق وأكثره تأثيرًا في فتح القلوب، واستمالة النفوس، وتقريب الأذهان، وإزالة الوحشة.

انديرا غاندي:

إن الرسائل التي وجهها الشيخ الندوي إلى رئيسة الوزراء انديرا غاندي، لم يتخل فيها عن منهجه المتبع، فكتب رسالة مفصلة إليها، يشرح فيها الوضع السائد في البلاد في أيام حالة الطوارئ، والبطش والاستبداد الذي يواجهه الشعب، يقول فيها بعد أن ذكر صلته بوالدها، ونوه بخدمات جواهر لال نهرو في سبيل تحرير البلاد، وخدمات حزب المؤتمر الوطني في إرساء قواعد متينة للوطن بعد الحرية، وتضحيات الزعماء والقادة المناضلين للاستقلال، أمثال الزعيم غاندي، وموتي لال نهرو، وأبي الكلام آزاد، والآمال التي تعقد بابنة جواهرلال نهرو، ونوه بجرأتها وصرامتها وذكائها في سياسة البلاد، فيقول بعد الاعتراف بخدماتها ومآثرها:

"لقد توتر الوضع، وازداد سوءاً من ستة أشهر منذ بدأ تنفيذ تحديد النسل بشدة وعنف، وأخاف أن الأخبار الصحيحة لا تصلك، وإلا لما كان من المعقول أن تتدهور الأوضاع وتتحول من سوء إلى أسوأ، ولا يحتمل ذلك أي زعيم محنك مخلص للبلاد، محب للوطن، وإني أعتقد أن حكومات الولايات - على عكس مقاصد المشرفين على الحكومة المركزية والمسئولين عنها - قد اتخذت تنفيذ هذا القانون، والحصول على النجاح وسيلة هينة في السلطة والجاه، وهم يتسابقون في هذا، ويقع بسبب ذلك من المعاملة ما يقع من حكومة أجنبية ذات عقلية إدارية معلومة وعملائها وأذنابها مع المواطنين الآمنين الوادعين، وقد

أنتج ذلك أن تحولت هذه البلاد إلى ثكنة يسودها القلق والرعب والخوف، ويرتكب الناس لتحقيق مآربهم التافهة والوصول إلى الهدف المطلوب من تحديد النسل كل الأعمال الخسيسة والوحشية، فيصطاد العمال المساكين، والقرويون والمحترفون مثل اصطياد الوحوش والطيور في الغابات، وتستخدم وسائل الترهيب والعنف، والإطماع والترغيب حتى يكملوا هدفهم، ويشترط للمحافظة على الترخيصات الرسمية للتجارات، أو الحصول على الترخيصات الجديدة أن يقدموا كذا عدداً من الأفراد لتحديد النسل، وأصبح الموظفون الذين هم العمود الفقري للحكومة، والذين كانوا يتمتعون بحرية واحترام زائد إلى الآن، يعيشون في خوف وقلق، والأساتذة والمدرسون الذين عليهم عهدة تربية الجيل الجديد يعانون من الاضطراب النفسي والعقلي الشديد، وعاد هذا الموضوع حديث النوادي والمجالس، والناس في همّ وعذاب وبلاء".

ويقول بقوة وجرأة:

"وكان نتيجة هذه الأوضاع الطبيعية ذلك الانحطاط الخلقي الذي يسببه الخوف والطمع في بلاد عمَّ فيها الجهل من سابق، ومن أخطر الجوانب وأشدها أسفاً أن أهل البلاد يكادون يحرمون من الشعور بكرامتهم، وثقتهم بأنفسهم، التي كانت وجدت بفضل جهود حركة المؤتمر الوطني، وجهود حركة الخلافة، ومساعي قادتنا السياسيين: غاندي ومولانا أبو الكلام آزاد، ومحمد علي جوهر، وأسرة نهرو، وظلت البلاد تشعر بأنها لا تزال تعيش حياة العبودية، والقهر، ولعله ما تمر لحظة يشعر فيها أي إنسان في هذه البلاد بأنها بلاد حرة ديموقراطية، بعيدة عن كل إجبار وإكراه، وعنف، استطاعت بجهودها أن تنال

حريتها واستقلالها من حكومة أجنبية، وأخذت بيدها زمام أمورها.

ولا أرى أحرص على إيجاد هذه الثقة والاعتماد وأقدر لها وأكثر شعوراً بقيمتها وضرورتها من أعضاء أسرة نهرو، فإن لهذه الأسرة نصيباً أساسياً في هذه الجهود، وقد سقوا هذه الشجرة بعروقهم ودمائهم، فكيف يسوغ أن يروا هذه الشجرة في عهد حكمهم وهي تذوى وتصفر، لقد مست الحاجة الآن إلى مراجعة الأوضاع في البلاد، فإن أي شعب إذا تعود على العبودية، والجبن، والخوف، وفقد صفات الجرأة والطموح، والثقة، وعمل - عكس ما يحب ويريد - تحت ضغط الخوف، أو طمع المال، واعتقد أن المحافظة على الحياة، والمنصب، والوظيفة أهم شيء، ولو على حساب الضمير، والغيرة، والثقة بالنفس، فإنه لا موضع للطمأنينة، والاستبشار لهذا الشعب مهما تقدم سياسياً واقتصادياً وتعليمياً في الظاهر، فإن البلاد بالشعوب، وليست الشعوب بالبلاد، والشعوب لا تعيش إلا بسيرتها، وصفاتها الباطنة الصالحة، وعزتها، وجرأتها الخلقية، لا بوسائل معيشتها، وارتفاع مستوى حياتها.

إنه لمن الفشل والخيبة لحركة تحرير البلاد وجهودها وقادتها أن يضطر الناس إلى تذكر عهد العبودية والحكم الأجنبي، وإنه لمن العار أن يتذكر الناس اليوم العهد الإنكليزي ويتمنوه"[1].

وانتهج الشيخ الندوي هذا المنهج المؤاسي الناصح، الذي تغيّرت بفضله أذهان كثيرة، وكانت القلوب المتحجرة، وإن لم تتغير كليًّا، قد وقع فيها تغيّرما، حتى تأثرت انديرا غاندي بهذا المنهج، فجاءت إلى مقر الشيخ الندوي برائي بريلي وطلبت منه أن ينصحها بما ينفعها.

---

[1] في مسيرة الحياة: ١/٣٦٩–٣٧١.

راجيف غاندي:

أصـدرت محكمـة الاستئناف في ٢٣/ أبريـل ١٩٨٥م في موضـوع "نفقة المطلقة" حكمها المعروف الذي كان تدخلاً سافرًا في الدين، ذلك في عهد رئيس الوزراء الهندي راجيف غاندي، حكم القاضي جندرجور في المرافعة التي تقدم بها محمد أحمد خان ضد زوجته المطلقة شاه بانو، بأن الزوج المسلم مُلْزَم بأداء النفقة الدائمة لزوجته المطلقة، مستدلاً بآية القرآن "وللمطلقات متاع بالمعروف" وهو استدلال خاطئ ومضلل، فجاء هذا الحكم حملة نكراء على الشريعة الإسلامية، وهزت الأمة الإسلامية وزلزلت كيانها، وليست القضية قضية حكم، بل كانت قضية الحفاظ على الشريعة الإسلامية وحرية العمل بها في البلد، كان يخشى أن تصـدر المحكمـة في المستقبل أحكامًا مغـايرة للشـريعة الإسـلامية كمـا أصدرت حكمها في قضية نفقة المطلقة، الأمر الذي يشكل خطرًا على الشخصـية الإسـلامية والهويـة الدينيـة، فقامـت هيئـة قـانون الأحـوال الشخصية الإسلامية لعموم الهند في هذا الصدد بقيادة رئيسها الشيخ الندوي، فدعت جمهور المسلمين إلى أن يرسلوا عددًا كبيرًا من البرقيات إلى رئيس جمهورية البلد ورئيس الوزراء الهندي، ويعرفوا المسلمين في مساجدهم بحقيقة الأوضاع، وعقد الاحتفالات العامة وجلسات احتجاج ضدّ هذا الحكم في كل بقعة من بقاع البلد، وقد تأثرت الأمة الإسلامية الهندية بهذه الدعوة ولبَّتها، وطبقتها تطبيقًا لم يشاهد مثيله في أي قضـية مـن قضـايا الأمـة الإسـلامية، فأرسـلت مئـات الألـوف مـن البرقيات من مختلف بقاع البلد وقراه ومدنه ومديرياته، وألقيت الخطب في المساجد، واهتم الناس بالدعاء، وعقدت احتفالات من أقصى البلاد

إلى أقصاها، حتى في مدينة رائي بريلي مقر الشيخ الندوي عقد مؤتمر الحفاظ على الشريعة الإسلامية، حضر فيه حسب إحصاء صحيفة "قومي آواز" الأردية الرسمية مائة ألف شخص من مختلف مديريات الولاية، وكان ذلك اليوم يومًا تذكاريًا في تاريخ هذه المدينة، فقد أغلق المسلمون دكاكينهم، وتركوا عملهم، وأقبلوا إلى هذا المؤتمر الذي لم يسبق له نظير في تاريخ هذه المدينة، وقام المسئولون عن الهيئة بجولات مكثفة في مختلف مناطق البلد، وقد شوهدت موجة عارمة من الحمية الدينية واليقظة الإسلامية والوفاء للإسلام والحفاظ على الشريعة الإسلامية لم يعهد مثلها، وكان الناس يجتمعون على المحطات وينتظرون قدوم الوفد ليلقوا عليه نظرة، ويرحبوا به، ويقولوا لقادتهم وعلمائهم: فداكم أنفسنا وأموالنا لحماية بيضة الشريعة الإسلامية، نفديها بالمهج والأرواح.

وعلاوه على هذه الاحتجاجات والجلسات التقى المسئولون عن الهيئة برئيس الوزراء المستر راجيف غاندي عدّة لقاءات، وأقنعوه بأن يعاد النظر في هذا الحكم الذي أصدرته المحكمة، يقول الشيخ الندوي:

"قلت لدولة راجيف غاندي: سيادة رئيس الوزراء إنه كما يكون للكتابة الطويلة اختزال، كذلك يكون للسياسة أيضاً طريق قصير، وهو أن يراجع في هذه القضية أصحاب الاختصاص فيها، ومن يتبنونها ويخلصون لها، وتفهم عن طريق البحث والمداولة معهم، ويحرص على حلها في أقرب وقت قبل أن تصل هذه القضية إلى أيدي السياسيين المحترفين، فيطولوا طريقها ويعرقلوا سيرها للمصالح السياسية والشخصية والحزبية، فتورط الحكومة فيما هي في غنى عنه من المعارضات والمشكلات.

ويبدو أن راجيف غاندي أدرك مرامي كلامي، واقتنع بذلك، وعلم

أن الذي يتحدث إليه ليس سياسياً محترفاً ولا قائداً داهية"[١].

ولما جاء ذكر تقديم مشروع في البرلمان يلغى حكم المحكمة ، قال راجيف غاندي في أسلوب اعتذار : لم يقدم المشروع بسبب أعذار قانونية ، وسيقدم المشروع في البرلمان.

وقد أدرك رئيس الوزراء بخطورة هذه القضية خلال اللقاءات المتكررة ، كما أدرك أن قادة هذه الحركة مخلصون لا يريدون تحقيق غرض ولا منصبًا ، وقد التقى نفسه برئيس الهيئة الشيخ الندوي في الخلوة مرة أو مرتين ، فتحدث الشيخ الندوي إليه بحكمة بالغة ، وصرّح موقفه الصارم بقوة ، تأثر بها رئيس الوزراء ، وقرّر في نفسه أخذ الموافقة في البرلمان على المذكرة التي تقدم بها المسلمون إلى رئيس الوزراء ، وكانت القضية حساسة وحرجة ، وكانت الصحف ووسائل الإعلام تعتبر قرار المحكمة قرارًا عادلاً وحقًا ، وتقوم بدعاية مكثفة ضد الهيئة ، وتقول " لماذا تثير الهيئة قضية حكم المحكمة الذي يتعلق بقضية فرعية تمنح فيها المطلقة المظلومة نفقة" وكان يلاحظ كأن رجفة تكاد تقع بالأرض ، أو كأن بركانًا يتفجر أو وباء عامًا فتاكًا ، يوشك أن ينتشر في البلاد ، وكان يخشى أن لا تنحل القضية بسبب موقف الصحافة المعاند ، ولكن قادة الهيئة اتخذوا الحكمة والحلم والأناة في هذا الصدد ، وحاولوا إفهام كبار مسئولي الحكومة وخاصة رئيسها راجيف غاندي وإقناعه وكسب ثقته ، ونشأ الأمل في حلّ العقدة والقضية ، ولكن فجأة أشار أحد على رئيس الوزراء أن ينظر أولاً في قوانين الأحوال الشخصية في عدد من الأقطار الإسلامية ، هل أحدثوا عندهم تعديلات وتطويرات في قانون الأحوال الشخصية أم لا ؟ فإن كانوا

---

[١] في مسيرة الحياة : ٢/ ٩٩.

قد تناولوا قانون الأحوال الشخصية الإسلامية بالتعديل والتغيير فلا بأس بذلك في دولة علمانية كهذه، فعلم الشيخ الندوي بذلك، فقبل أن يرى رئيس الوزراء رأيًا التقى به وقال له:

"إنني أرى أنه لا يسوغ لكم أن تقبلوا هذا الاقتراح، فإننا نحن الممثلين للدين الإسلامي، لو رفضنا ذلك مرة لكان عليكم أن ترفضوه أربع مرات، فإنه فيما يتعلق بقيادة البلاد أنتم الجيل الثالث في القيادة، إن الهند لا تقل - بالنسبة للمسلمين - علمياً ودينياً، عن أي بلد عربي أو إسلامي، فلها مكانة مستقلة محترمة، ولا يحسن بي أن أقول عن نفسي، ولكن أصارحكم بأن المجمع الفقهي لرابطة العالم الإسلامي الذي يضم أكبر نخبة من العلماء والفقهاء وأصحاب الاختصاص الفقهي في البلاد العربية والأقطار الإسلامية، وأنا عضو فيه من اليوم الأول، قد حدث بعض المرات أن جميع أعضاء المجمع كانوا في جانب، وكنت في جانب آخر، وأخيراً صدرت الموافقة حسب رأيي، وأن في هذا المجلس الذي نحن فيه يوجد من العلماء الأفاضل من لو ذُكر اسمه في جامع الأزهر لأحنى الناس رؤوسهم تأدباً واحترامًا".

فقد اهتم رئيس الوزراء بهذه القضية، واستمع إلى ما قاله قادة الهيئة خلال اللقاءات معه، وطالع بنفسه بنود المذكرة التي قدمت إليه، وقال في خطاب له: إن حقوق المرأة التي منحها الإسلام لا توجد في أي دين من الأديان، وبذلك أصبح مترجمًا لهذه القضية، وقرّر أن يقدم المشروع في البرلمان ضد حكم المحكمة، وحدد ٥/ مايو ١٩٨٦م تاريخ تقديم المذكرة، ولأن جوّ خارج البرلمان غير ملائم، حتى أن بعض أعضاء حزب المؤتمر الوطني لعموم الهند كانوا غير مقتنعين بالمذكرة،

أعلن قراره الحازم ومطالبته الحكومية لجميع أعضاء حزبه بالموافقة على المذكرة، وأن كل من يعارضها يفصل عن الحزب، حتى لو غاب أحد الأعضاء عن تلك الجلسة في البرلمان التي يؤخذ القرار فيها بالموافقة عليها فسوف يفصل أيضًا من الحزب، فقدمت المذكرة في ٥/ مايو ١٩٨٦م إلى البرلمان وبعد مناقشة المذكرة لإحدى عشرة ساعة متواصلة قدمت المذكرة للتصويت في الساعة الثانية ليلاً، ووافقت عليها الأكثرية، فكان يوم الفرح والسرور بالنسبة للمسلمين، وظهر معنى الآية " وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ بِنَصْرِ اللَّهِ يَنْصُرُ مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ".

وكانت الموافقة على المذكرة في البرلمان نجاحًا باهرًا نالته الهيئة، ويرجع فضله إلى حكمة الشيخ الندوي وفراسته ومنهجه البناء الإيجابي في حل القضايا بطريق الحوار واللقاءات والاحترام المتبادل، وجهود الإفهام والإقناع، ثم كتب الشيخ الندوي إلى رئيس الوزراء رسالة شكر، ونبهه فيها بما يحدق بالبلد من أخطار وتهديدات، ولفت نظره إلى تفاقم الطائفية والتمييز الطبقي، وقضايا أخرى، ونصحه بحكمة، وذكّره بمسؤولياته نحو البلد.

وي ،بي سنغ:

حينما كان المستر وي. بي. سنغ كبير الوزراء في ولاية أترابراديش، وقعت اضطرابات طائفية بشعة في مدينة مرادآباد، تعرض لها المسلمون، وبعدها بأيام التقى كبير الوزراء في جلسة بالشيخ الندوي، فخاطبه الشيخ الندوي وأنّبه؛ ولكن بأسلوب ملؤه الحكمة والمؤاساة والنصح وكنت أنا أيضًا معه فكأني أسمعه وهو يقول:

"لا أستطيع أن آخذ بتلابيب كبير الوزراء، ولكن أستطيع أن آخذ

ذيله وأبدى مشاعري".

فأطرق كبير الوزراء رأسه استحياء، وقال له الشيخ الندوي ما شاء بهذه الجملة الموجزة، مما تأثر به تأثُّرًا كبيرًا، وأعجب به إعجابًا، حتى زاره مرات حتى عندما انتخب رئيس الوزراء وزاره وقال له مرة: "عندما أريد أن ألقى كلمة، أطالع أولاً كتيبًا من كتيباتك"، وتجرأ فقال في مقابلة له: "أنا أريد أن أرى الهند دولة حلم بها ووصفها الشيخ الندوي".

أتل بهاري باجبائي:

وفي أثناء مرضه زاره في ندوة العلماء رئيس وزراء الهند أتل بهاري باجبائي في ٢٨/مارس عام ١٩٩٩م، فلفت نظره إلى أوضاع البلد، وقال له: "إن هذا البلد كسفينة، ونحن جميعًا ركابها، إن غرقت، غرقت مع الجميع، ولا ينجو أحد منا من الهلاك، فمسئوليتنا جميعًا أن نسعى لإيصاله إلى السمو الخلقي، والقمة في الإنسانية، ونحذر ممن يعبثون به"، وقال له: "إن البلاد في خطر، فعليكم أن تتخذوا الإجراءات لوقايتها وسلامتها".

الكلام الأخير:

يمكن أن ينشأ في الأذهان سؤال، هو ما هي فائدة هذه الجهود كلها وما هي ثمرتها؟ وإن أوضاع البلد الراهنة أسوأ مما كان في الماضي، فعلى من ينشأ في ذهنه هذا السؤال أن يعلم أن هذه الأوضاع المتردية لحدثت قبل اليوم بمدة، إن لم تكن هذه الجهود المخلصة، فبفضل هذه الجهود الإيجابية البناءة لم تنجح المؤامرات لإفساد البلد، فقد تزايدت الحاجة اليوم إلى تلك الجهود الحثيثة المخلصة، لنشر رسالة الإنسانية، والمحبة، والأخوة، والتعايش السلمي، ويشعر بذلك الخاصة والعامة، ولكن إذا لم تُبذل الجهود المخلصة بنطاق واسع بطريق منظم، فمن الصعب أن

تظهر النتائج المطلوبة بنطاق واسع، بينما تأتي النتائج المرجوة في الأماكن التي تجري فيها هذه الجهود المخلصة.

فإن منهج الإمام الشيخ أبي الحسن علي الحسني الندوي في الفكر والدعوة حاجة كل بلد، وكل عصر، فإن التقدُّم إلى المرحلة الأخيرة بدون الخوض في المرحلة الأولى تضر بعمل الدعوة إلى الخير، وإن الحب يحمل تأثيرًا كبيرًا، وهو إكسير، يحول القلوب المتحجرة من القسوة والعداء إلى الرحمة والمحبة، ويجعل العدو صديقًا حميمًا، "وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِمَّنْ دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحًا وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ وَلَا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ وَمَا يُلَقَّاهَا إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلَقَّاهَا إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ" [فصلت: ٣٣–٣٥].

وإن القلب له صلة بالقلب، والإخلاص جسر يربط القلوب، ولكن لابد أن نكون متيقظين واعين، وندرك حقيقة الأمر، ونفهم الأوضاع فهمًا صحيحًا، ونفطن للتحديات ومكائد الأعداء، ونكشف عن المؤامرات والمخططات.

فهرس المحتويات

بين يدي الكتاب	٥
منهج الشيخ أبي الحسن على الحسنى الندوي في الفكر والدعوة	٧
الشمول والوسطية	٧
الدعوة إلى الله	١٢
الدعوة إلى الاعتدال في الفكر	١٤
طريقان لإعلاء الدين الإسلامى	١٨
قصص تربية السلاطين والأمراء على المبادئ الإسلامية	٢٠
منهج الشيخ الندوي في مناصحة الحكام	٢٥
مجدد الألف الثانى في عصرالإمبراطور أكبر	٢٨
ما صدر من القلب نفذ إلى القلب	٣٤
موقفه من الحركات الإسلامية المعاصرة	٣٥
موقف الشيخ الندوي من السياسة	٤١
محاولات إقامة الدين مقرونة دائمًا بمراعاة الحكمة وفقه الدين	٤٣
تغيير الأفكار لا تغيير الأجسام	٤٥
أصول الدعوة عند الشيخ الندوي	٤٥
منهج القرآن الدعوي المعجز في ضوء دعوة الأنبياء والمرسلين	٤٩

إثارة للحنان الأبوي	٥٠
إصلاح المجتمع الإنسانى	٥١
الفرق بين العقيدة والعمل ومنهج دعوته	٥٢
محاولات الشيخ الندوي في مجال إرشاد القادة والزعماء	٥٨
المملكة العربية السعودية	٥٩
الكويت	٧٠
شرق الأردن	٧٣
مراكش	٧٩
اليمن	٨٢
الإمارات	٨٢
إيران	
تركيا	٨٧
باكستان	٩١
الهند	٩٧
انديرا غاندي	١٠٥
راجيف غاندي	١٠٨
وي، بى سنغ	١١٢
أتل بهاري باجبائى	١١٣
الكلام الأخير	١١٣
فهرس المحتويات	١١٥